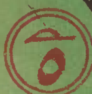
كتب للجميع



فى المرآة

شيخ عبد العزيز البشرى

بريشة سانتى



كتب للجميع

في المرآة

مختار المرايا التي نشرت في السياسة الاسبوعية

لفقيد الأدب
الشيخ عبد العزيز البشري



٢٢ شارع توفيق بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى »

الإهداء

الى هؤلاء السادة الذى بعثت القول فيهم ، انما استوحيت فى هذه «المرايا» خلالكم واستلهمت نزعات أنفسكم ، فأنتم أحق الناس بأن تهدى اليهم . فمن أصاب نفسه فى « مرآته » فأعجبته صورته فليوجه الحمد لله تعالى الذى سواه على هذا ، فليس لى من الامر غير النقل والاحتذاء . والسلام عليكم ورحمة الله

المخلص

محرر المرآة

تقديم

سألنى صديق لى كريم المنزلة عندى أن أتخير له صورا من تلك « المرايا » التى أرسلتها فى « السياسة الاسبوعية » ليطبعها ويسويها للناس كتابا . وتعذرت عليه دهرا لاننى انما أعانيها على أنها بنت ساعتها وحديث يومها لا على أنها مما يثبت، فى الزمان، لتردد الانظار ، واعتياد الافكار ، وما برح يعترينى بالحاجة الكريم ويملك على مذاهب الحجج فى مطاولته حتى لم أجد لى مفيضا من التسليم . فجمعت منها طائفة وضممت اليها ماكتب فى هذا الباب شاعر مصر الكبير حافظ بك ابراهيم فى حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل ، وماكتب أديب آخر فى حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر ، وجعلت أعود على تلك «المرايا» بأوان التهذيب فأرم مارث بالطبع ، واستدرك ماعسى أن تكون قد فوتت العجلة من فنون المعانى ، وأعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام . وأضفت الى هذه المجموعة طائفة أخرى من رسائل شتى كان قد جرى بها القلم ، على أنها كلها مما يدخل فى معنى تلك « المرايا » ويتصل بجنسها . ثم لقد اعتمدت من ألفاظ هذا الكتاب كل مايحتاج الى الضبط فضبطته بالشكل ، وكل مايحتاج الى المراجعة ففسرته ، تدريبا للناشئين على المنطق الصحيح . وأمدنى بأصدق العون فى هذا كله وفى تصحيح طبع الكتاب الاديبان اللغويان الاستاذ احمد زكى العدوى والاستاذ محمد صادق عنبر ، وصلهما الله عن الادب بخير الجزاء .

وصدرت كل «مرآة» بصورة صاحبها (الكاريكاتوريه) من رسم الفنان الاشهر الاستاذ (سنتيز) . أما صورة الغلاف

فقد تفضل بوضعها الاستاذ الفنان المبدع مصطفى بك مختار محرم ، مد الله فى عمر أناملهما رحمة بالفن الجميل .

ولست أتحدث عن مطبعة دار الكتب فان كل آثارها تحدثك وحدها عما أوفى على الغاية من الدقة والجمال والاحسان . ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنوه بما لحضرة محمد نديم افندى ملاحظ المطبعة من همة وخبرة يزينهما حسن الخلال .

وقد راعيت فى ترتيب هذه « المرايا » تواريخ نشرها فى « السياسة الاسبوعية » فلا تأخذنى ، بعد هذا ، بتقديم زيور باشا فى « رجال السياسة » على سعد باشا زغلول ، ولا بتقديم الدكتور محجوب ثابت فى «الطب» على على بك ابراهيم ، ولا بتقديم الاستاذ فكرى أباظه فى « الوطنية » على حافظ بك رمضان !

* * *

والغاية التى تذهب اليها «المرآة» هى تحليل «شخصية» من تجلوه من الناس ، والتسلل الى مداخل طبعه ، ومعالجة ماتدسى من خلاله ، ونفض هذا على القارىء فى صورة فكهة مستملحة . وهذا النوع من البيان انما ترويناه عن كتاب الغرب وما فتئنا نقلدهم فيه تقليدا ، على أن بعض كتاب العرب من أمثال الامام الجاحظ قد سبقوا الى شيء من هذا التصوير البيانى ، الا انهم لم يعدوا فيه تسقط هنات المرء والصولة عليها بألوان التندر والتطريف . أما التوسل بمظاهر خلال المرء الى مداخل نفسه ومنازع طبعه ، واجراء هذا على اسلوب علمى وثيق «Psyc Hologigue» فذلك مالم أقع عليه فى منادراتهم ووجوه تطرفهم .

ولا يذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور (الكاريكاتورى) فهو انما يعمد الى الموضع الناتىء فى خلال المرء فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات . وأنت خبير بأن مرد النكتة الى خلل فى القياس

المنطقى باهدار احدى مقدماته أو بتزييفها او بوصلها ، بحكم التورية ونحوها ، بمالاتتصل به فى حكم المنطق المستقيم ، فتخرج النتيجة على غير مايؤدى اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ، وهذا الذى يبعث العجب ، ويثير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع . ولا يعزب عنك كذلك أن « النكتة » اذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يحتاج فى ادراكها الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها فى مساغ الكلام .

ولعلك آخذى بأننى اسف أحيانا الى العاميه الشائهة فأوردها فى درج الكلام . وعذرى فى ذاك ماتعرف من أننا نكتب بلغة ونتناول اسبابنا الدائرة بلغة أخرى ، وهيهات لك أن تجلى على القارىء صورة كاملة من حديث قوم فى مناقلاتهم ومنادراتهم وماتطارحوا من فنون النكات الا بأن تورده كما نطقوا به ، وبخاصة اذا كان يجرى فى التعبيرات التى تشيع على ألسن الناس وتذهب عندهم مذهب الامثال ، فاذا حاولت أن تؤدى هذا بفصيح اللغة فسد الغرض واختل نظم الكلام . وللامام الجاحظ فى هذا المعنى قول جليل ، فراجعه ان شئت فى كتابه « البخلاء » .



وبعد فالرأى الا تتناول الاقلام بمثل هذا النوع من الحديث الا أمرا يقوم على شأن عام ، على ألا تتره حقا ولا تضيف اليه ماليس له ، وعلى ألا تتدسس الى مكارهه ولا تطلب من مستور هناته مالا يتصل بالشأن العام ، فاذا هى اعترته بعد هذا بألوان التندر كان حقيقا بها ألا تصرف وجه القول الى الرغبة فى تهاونه والتهزىء به والكيد له . وهذا ماتحريته فيما عالجت من هذه (المرايا) فان يكن قد ند القول بعض الحين فاننى أمرؤ ينبو على القلم ، وتزل بى لقدم ، وانى استغفر الله وأسأله العافية .

في حضرة الرئيس *

ملء السمع ، ملء القلب ،ملء البصر . لو حاول بكل جهده الا يكون رجلا عظيما ما استطاع وهيهات لامرىء ان يملك عن نفسه ما شاء لها الله ! وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه . فكان طالبا عظيما ،وكان مدرها عظيما ، وكان قاضيا عظيما ، ثم تناهت اليه زعامة امة فهو فيها ملء السهل والجبل

بحسبك ان تراه لتعرف انه سعد ولو لم يومىء اليك احد بانه سعد : وكيف يختلط عليك امره وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بانه ، وان كان من الناس ، الا انه اعظم الناس

بسطة فى العلم والجسم ،بسطة فى العقل والحلم . وعزم تتزايل الجبال دون ان يتزلزل،ويقين تتحول الارض عن مدارها ولا يتحول ، ومنطق يصول فى الجلى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت بسيوفها وعواليها ،ويلطف فى السمر حتى لتتمثل اسراب الكواعب وسوست حليها وتضوعت منها غواليها

وما ان رايت ولا سمعت برجل فسح الله تعالى له فى البيان وامكنه من نواصى الحجة كما فسح لسعد ومكن لسعد . ولقد تتقدم لمباراته فى الامر تظن انك قد بلغت منه الغاية ووقعت على الصميم وتمنعت منه بالحصن القوى ، فما هو الا ان يرسل عليك الحجة حتى ترى انه ملك الراى عليك من جميع اقطارك ،

(*) نشرت بجريدة الاهرام الصادرة فى ١٧ اكتوبر سنة ١٩٢٦ عقب زيارة محرر المرآة لدولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول بمسجد وصيف



ودعاك حسدك الرئيس وأمسكوا ودعاك خالقك الرئيس الاكبرا
خلفت صفاتك فى العيون كلامه كالخط يملأ مسمعى من أبصرا

وانك سرعان ما وقعت اسيرا فى يديه تتقلب فيهماتقلبا ، وهيهات لك الخلاص الا بان تنزل فى امرك على الاذعان والتسليم !

وان انس لانس ليلة مضت من عشر سنين حاور فيهـا مستشاراكان فى محكمة الاستئناف، معروفا بشدة الجدل ، فى مسالة فقهية ، وكلما انحط الرجل فيها على راى ازعجه سعد فطار الى غيره ، حتى اذا ظن انه تمكن فى افحوصه (١) ثار عليه بالحجة فوثب الى سـواه ، ومزال به صدرا من الليل ينشره ويطويه ، وينقله من راى الى راى ،ويحوله من قـول الى قـول ، حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيـه فضل لحوار ولا جدل !

ولا ادرى اكان ذاك من سعد مجرد تهد للرأى وتعقب لموطن الصواب ، ام انه انما كان يتلعب بالرجل تلعبا لينزله على معـرفة قدره ، ففى نفس ذلك المستشارغرور وفى انفـه ورم ! ام هى المخيلة (٢) تبعثهـا فى النفس شده التمـكن من النفس ، وانه ليلذ لها احيانا الا تمتعك بذلك الواقع الذى اطمأنت به والحق الذى استرحت اليه ، فما هـو الا ان تصول بالحجة عليك حتى ترى انك انما كنت تقبض عـلى الهواء ، وأن صرحك الذى اقمته تفرق عنك تفرق الهباء ، فتتولى منخذلا عن يقينك وقد ضربـك الشك : اكنت مخـدوعا عـن الواقع ؟ . ام ان هـذا الواقـع دون قوة سـعد فهو يصرفه بحجته كيف يشاء ؟ . . لا ادرى يومها ماذا كانت اربة الجبـار . والله اعلم ! .

وسـعد قد علت به السـن وشاب راسه ، على انه ، بسط الله فى عمره ، ما زال يمـرح من فطنته القوية فى افتى الفتوة وامرع الشباب . ولو كتب لك اظفر ساعة بمجلس هذا الـذى دوت الدنيا كلها بمجده لنعمت بما لايلحقه الوصف من عـذوبة طبع فى عذوبة مجلس ، وحديث كانه قطـع الروض رف (٣)

(١) الافحوص : مجثم القطاة وهو الموضع الذى تفحص التراب عنه لتبيض فيه

(٢) المخيلة : الكبر

(٣) اهتز من نضارته

آسه ونسرينه ، وتضوع ورده وياسمينة، وبديهة كانه يقرأ منها فى كتاب ، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب ونادرة تشيع فيك الطرب، وتهزك من اعجاب ومن عجب ، اذ هو فيما يرسل من القول ، فى جده ومزاحه ، لا يعدو ما ينبغى له من تحشم ووقار

وانه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يفرخ روعك ، ويفسح لك فى جوانب القول لتقول ، وانه ليباريك فى منزعك ، ويدارجك فى حديثك الى ان يرسلك على سجيتك ويسترسل معك ، حتى اذا اطمأننت اليه وظننت انك فى مساجلة رجل مثلك ، خانته عبقريته ، فوثب به ذهنه الى مالا يتعلق به ذهنك ، فاذا أنت قد طرت كل مطير ، واذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه الا أن تشعرك أنك فى حضرة سعد زغلول !

يالله من هذا الرجل ! وانه ليعرض فى الامر فيقول فيه مقالا، وانك لتقدر له بادىء الرأى غاية ماتعاهد الناس من حجة ، واقصى ماتعارفوا من دليل ، فاذا هو قد وقع فى تدليله على مالم تقع عليه ظنون الناس ، وارتفع الى مالم تتعلق به أذهانهم ، ففتح فى المنطق فتحا جديدا وأتى بما يبهر ويروع ، وكيف لسعد ألا يرتفع على مذهب حجة الناس ، وقد رفعه الله على الناس ؟ .

وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بأنه انما يتحدث على آمال أمة ، فهو مهما بارى المجلس فى فنون أحاديثه ، ومهما تدلى به السمر الى تلك الاسباب الدائرة بين الناس ، يرفه بذاك عن نفسه وعن صحبه ، يطفر الفينة بعد الفينة الى حديث الوطن ، فيشك فيه معنى جليلا ، ثم يعود فيصيب ماشاء الله من حديث القوم . أعلمت أن سعدا لا يصلح الا للوطن ، وأن الوطن لا يصلح الا بسعد ؟ .

أريد ان أكتب عن سعد ، ومن الغرور ان أظن بقلمى الوفاء بوصف سعد مهما تفرج له فى جوانب البيان ، فان البيان انما يجرى فى غايته الى ماتعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك

النفحات الالهية التى يرسلها الله تعالى فى العصور الطوال ثنيا (١) بعد ثنى ليقيل أهل الارض الزلة ، ويهديهم من الضلة - فذلك ماتعجز عنه اللغى ويقصر من دونه البيان .

وبعد فاذا أردت أن تصف الناس سعدا فلن تستطيع أن تصفه بأبرع من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعانى مالايبلغه الكلام ، وان قدرته العقول وتعلقت به الافهام .

(١) وقتا بعد وقت .

زيوريات ...!

اما شكله الخارجي واوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الافقية فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته الى فن دقيق وهندسة بارعة . والواقع أن زيور باشارجل ـ اذا صح هذا التعبير ـ يمتاز عن سائر الناس فى كل شىء ، ولست أعنى بامتيازه فى شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بعد مداه ، فان فى الناس من هم أبدن منه وأبعد طولا وأوفر لحما ، الا ان لكل منهم هيكلا واحدا ، أما صاحبنا فاذا اطلعت عليه ادركت لاول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لاتدرى كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وانك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها مايدور حول نفسه ، ومنها مايدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتحجر ، وفيها المسترخى المترهل . وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعافها الى الامام شعبة طويلة ، أطل من فوقها على الوادى راس فيه عينان زائغتان ، طلة من يرتقب السقوط الى قرارة ذلك المهوى السحيق !

وانك لتجد ناسا يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة ، بينماترى آخرين ينعتونه بالبساطة ، وقد يتداولون به الى حد الغفلة ، كما تجد خلقا يتحدثون بارتفاع خلقه وتنزهه عن النقائص ، اذ غيرهم ينحطون به الى مالاتجاوره مكرمة ولا يسكن اليه خلق محمود !

كذلك زيور عند الناس مجموعة متباينة متناقضة متشاكسة :
فهو عندهم كريم وبخيل ، وهو شجاع ورعديد ، وهو ذكى وغبى ، وهو طيب وخبيث ، وهو داهية وغر ، وهو عالم وجاهل ، وهو

عف وشهوان ، وهو وطنى حريص على مصالح البلاد ، وهو مستهتر بحقوق وطنه يجود منها بالطارف والتلاد !!

كل أولئك زيور ، وكل هذا قد يضيفه الناس الى زيور ، فلا تكاد تسعهم مجالسهم بما يأخذهم فيه من الدهشة والاستغراب . واذا كان هذا مما لا يمكن فى الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلط الناس اذ حسبوا زيور رجلا واحدا ، والواقع أنه عدة رجال ، وعلى الصحيح هو عدة مخلوقات لا تدرى كما حدثتك ، كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ! فاذا أدهشك التباين فى اخلاقه ، وراعك هذا التناقض فى طباعه ، فذلك لان هذا الجرم العظيم الذى تحسبه شيئا واحدا مؤلف فى الحقيقة من عدة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوره وحظه من التربية والتهذيب . فمنها العاقل ومنها الجاهل ، ومنها الحكيم ومنها الغر ، ومنها الكريم ومنها البخيل ، ومنها المصرى ، ومنها الجركسى ، ومنها الفرنسى ، ومنها الانجليزى ، ومنها المالطى ، الخ : كل منها يجرى فى مذهبه ويتصرف فى الدائرة الخاصة به ، فلا عجب اذا صدر عن تلك المجموعة الزيورية كل ما ترى من ضروب هذه المتناقضات !

والظاهر ان زيور باشا برغم حرصه على كل هذه المتملكات الواسعة ، عاجز تمام العجز عن ادارتها وتوليها بالمراقبة والاشراف وما دامت الادارة المركزية فيه قد فشلت كل هذا الفشل فأحرى به أن يبادر فيعلن اعطاء كل منها الحكم الذاتى على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرج فى سبيل الرقى والكمال ، وحسب عقله فى هذا النظام الجديد . أن يتوافر على ادارة رجليه وحدهما ، ولعله يستطيع أن يسيرهما فى طريق الامن والسلام !

***

وانى أورد عليك طائفة يسيرة تدلك على ما فى هذه المجموعة الغريبة من ضروب المتناقضات التى تجزم منها بأن ذلك الخلق ليس شيئا واحدا ، وانما هو فى الحقيقة عدة أشياء .

فزيور باشا معروف بالقناعة والتعفف عن الابتذال فى احراز



لانقاذ مايمكن انقاذه ! . . .

الاموال ، ولكنهم فى الوقت نفسه يقولون ان جميع نفقات الولائم التى اقامها فى مصر وفى أوربا قدتناولها من « المصاريف السرية » بينما هو يقبض من خزانة الدولة الف جنيه لهذا الغرض فى كل عام !

ومما يحسن ذكره فى هذا الموضوع ماتحدثوا به من أنه لما زار أوربا فى الصيف الماضى طاف بجميع المفوضيات المصرية هناك فسل كل مافيها من « المصاريف السرية » حتى اذا علم أنه قد اتى على كل مافى مفوضية باريس من هذه الاموال ولم يدع لها قرشا ولا بارة أرسل تلغرافا الى مفوضية لندن لتسعفه بكل ماعندها من النقود !

ولقد تعلم أحيانا عن زيور باشا حرصه على مصالح الدولة ، على أنك اذا عاتبته على اسراف الحكومة فى عهده وابتذالها لاموال الدولة بهذا الاسلوب الفادح أجاب من فوره : « ان مصر غنية » l'Egypte est riche

ولقد تعرف فى زيور باشا طيبة فى القلب وسلامة فى الخلق ثم لقد يظهر لك فيه من المكروترى له من أنواع الدس مايعيا بمثله أخبث الشياطين . ولقد ذكروا أنه كلما التقى بسعدى أنب قومه على اتفاقهم مع « ألد أعدائهم » الاحرار الدستوريين ، واذا أصاب حرا دستوريا قال له : كيف يصح أن تتحدوا مع أولئك « المجانين المخربين » !

ولقد كان شديد الشكوى من نشأت باشا وبسطة يده فى كل مصالح الحكومة ، فاذا قيل له : وكيف لاتكفه عن هذا وانت رئيس الحكومة ؟ بسط كفيه ورفع رأسه الى السماء وأجاب : وهل يستطيع أحد أن يعمل شيئا فلما أقيل نشأت باشا من السراى جعل زيور يقبل على كل من لقيه يتمدح بأنه هو الذى أخرجه ووقى البلاد شرا عظيما !

وقد يعرف عنه بعض الناس قلة الخير ومع ذلك فان له صاحبا ورفيقا من رفقاء الصبا هو (ص بك غ) وله ولد يطلب العلم فى باريس فعينه فى مفوضية باريس فى وظيفة غير موجودة !

وعلى هذا الصديق دين لبعثة المرسلين الافريقيين فى مصر وقد استهبظ الربح توسط فى الامر صديقه زيور باشا الذى قصد الى روما فى تجواله باوربا فى العام الماضى . ومع مايعرف عن دولته من انه خريج مدارس الجزويت وأنه اخذ عنهم الدهاء والمكر وبعد غور النفس ، فقد طلب مقابلة قداسة البابا نفسه وخاطبه فى الامر وسأله التخفيف من دين صاحبه ، والبابا أحاله على وزير خارجيته الكاردينال جاسبارى وبعد أن سمع هـذا من رئيس وزراء مصر كل ما أراد أن يقول هـز كتفيـه وقال لـه ، « Chi recevato paga » أى «على من أخذ أن يدفع» وكان غنى زيور باشا أن يعرف ذلك !

تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونهم زيور باشا ، فاذا تمثلوا شخصا وبدوا للعيون رجلا واحدا فذلك مصداق قول ابى نواس .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وان أهل مصر ليأخذون زيور باشا كله بما لايحصى من الجرائم على القضية الوطنية وانهم ليعدون عليه سفهه فى اموال الدولة واستهتاره بمصالحها ، وانهم ليحسبون عليه ايثاره الاهل والاقربين والاصحاب والمحبين وذوى أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها ، وقد يكون لمجلس النواب مع هؤلاء الرجل شأن اذا أقبل يوم الحساب !

وان ظلما أن يؤخذ البرىء بجريرة الآثم ، وان عسفا ان يعاقب المظلوم بما أجرم الظالم ، فقد يكون الذى اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور باشا الايسر ، أو القسم الاسفل من (لغده) أو المنقطة الوسطى من فخذه اليمنى أو غيرها من تلك الكائنات التى تجمعت فى هيكله العظيم ، فما شأن تلك المخلوقات كلها تجر الى مواطن الاتهام ، وتعاقب بما ارتكب بعضها من الجرائر والآثام ؟!

ان الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النواب ، ان شاء الله لجنة تقوم بعمل التحقيق فى جسم صاحب الدولة ، فتسأل أعضاءه عضوا عضوا ، وتحقق مع أشلائه شلوا شلوا ، حتى يفرق منها بين المحسن والمسىء ، ولا يخلط فى العقوبة بين المجرم والبرىء .

ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام

هو مخ زيور باشا ، فما أحسبه شارك ولا دخل ، فى شىء من كل ماحصل !

* * *

وبعد فاذا كان هناك وصف جامع وخلة مشتركة لهذه الخلائق التى تجمعت لجسم زيور باشا حتى انتظمت فيه شعبا واحدا فذلك أنه قسيس جزويتى فى جلد رئيس وزارة مصرى ، فقد تربى زيور باشا فى مدارس الجزويت كما قلت لك ، وتخرج عليهم وتخلق بأخلاقهم . فاذا رأيت فى طبعه سهولة وفى نفسه بساطة فذلك لبعد غوره حتى ليخفى عليك مافى نفسه من مكر ودهاء !

وفيه صفة أخرى جامعة أيضا هى شدة احترامه « للبرنيطة » وعمله على ارضائها بكل الوسائل فما عرف أن زيور رد فى حياته طلبا « لبرنيطة » مهما كان حاملها فى الناس ، حتى لقد زعموا ان بعض كبار علمائنا الاعلام ، مصابيح الدجى وعمد الاسلام ، بعدما اعياه الكد والجهد وشدة الطلب والسعى وطول الوقوف بالابواب والتردد بين مختلف الاحزاب ، فى سبيل وظيفة خالية عزم أخيرا على لبس القبعة لعله يحظى فى هذه الايام (١) بمعونة زيور على افتاء الديار أو مشيخة الاسلام ومولانا الشيخ المذكور بوجه خاص ، لا يعدم الف فتوى من الشريعة ، تحل له هذه الذريعة .

(١) نشرت هذه المرآة وزيور باشا فى رياسة الوزارة .

عدلى يكن باشا

اسمر اللون فى شحوب ، الاان مايخالط سمرته من صفرة حلو مستعذب . يمتاز بقليل من الطول وكثير من العرض ، فهو بعيد ما بين الكتفين حتى لتعرفه موليا كما تعرفه مقبلا .

مستوى معارف الوجه ، حديد البصر ، اذا قدر لك ان يحدق فيك شعرت ان نظره لايستقر على سطحك ، بل انه ليتغلغل فى اطوائك ويصل من نفسك الى كل ماتضن به على الابتذال ، وادع ساكن ، تتجلجل الدنيا من حوله وهو ثابت ثبات الهرم الاكبر . ولقد تجلس اليه تحدثه فى شئون الدنيا فتطالعه باجل احداثها فلا يتقبض ولايختلج (١) ، الا انه يستلقى على كرسيه ثم يدس يسراه فى جيبه ويدير بيمناه رزمة من المفاتيح ، وتحسب ان ذهنه ليس عندك اذ هو عندك كله لايفوته من حديثك قليل ولا كثير .

وكانت لجنة الدستور ،وزاره بمحضرى رجل من اعضائها ، فسأله : ماذا صنعتم اليوم ؟ فقال له : كنا نتناقش فى موضوع (كذا) . فاستوى عدلى على كرسيه ولبث ساعة يتدفق بالحديث فى ذلك الموضوع ويورد كل مذاهب علماء الدستور فيه ، يعلل كل رأى ويوجه كل مذهب فى بلاغة وفصاحة قول ودقة تعبير ، وخرجنا وصاحبى يضرب كفا بكف ، ويزعم لى انه لو حلف بكل مؤثمة من الايمان ان عدلى كان حاضر لجنتهم ماحنث ولا اثم !

---

(١) يضطرب .

شديد القصد فى حديثه ، فاذا اذن الله وتكلم فهو حلو الحديث وخيم الصوت ، بارع المطلع ، رائع المقطع ، يصيب المحز ويقع من فوره على اللباب . تشعر انه خلص الى الغاية واصاب صميم النزاع ، دون ان يعلق بقوله شيء من وضر الجدل ومالاتدعو اليه حاجة الكلام .

لعل عدلى قد جاوز الستين ، واحلف بدورى ان مصر لو كانت عاشت عيشا طبعيا خاليا من الاحداث والعظائم ماكان له فى الدنيا اثر ، ولاجرى له على لسان جمهرة المصريين ذكر ولا خبر ، فلقد نجم عدلى باشا فى مناصب الحكومة كما نجم غيره من الناس موظفا صغيرا فى وزارة الداخلية ، وما برح يتقلب فى فنون الاعمال العامة حتى اصبح وكيل مديرية فمديرا فمحافظا للعاصمة فمديرا لديوان الاوقاف فمتقاعدا فى داره فوكيلا للجمعية التشريعية فوزيرا للمعارف ، لايمتاز فى شيء من ذلك الابالنبل والكبر على الصغائر والترفع عن سفساف الامور ، وكل ماكان له فيما عالجه من الاعمال من صحة الرأى وصدق التدبير وحسن التنظيم ، فما كان ليذكر له شيء منها الا بألسن من شارفوه ومن عملوا معه . اما عظمة عدلى واما شهرته الخالدة على الزمان ، فهو مدين بهما للجلى وللاحداث العظام ، فلولا جسيمات الامور لكان عدلى رجلا مدرجا فى عداد سائر الرجال .

ولقد كان وزيرا للمعارف فى وزارة رشدى باشا فى سنة ١٩١٨ وتهادنت الدول المحتربة الهدنة العامة ، وشمرت لعقد الصلح ، وتوقع المتطيرون ان تكون مصر من حصة انجلترا فى سلب تركيا المقهورة ، فنهض رشدى ومعه صاحبه عدلى وناجيا الانجليز بانهما يريدان ان يشخصا الى انجلترا ليراجعاها فى حقوق مصر التى ضحت بما ضحت من الرجال والاموال فى نصرة قضية الحلفاء ، وتثاقل الانجليز عنهما وتعللوا باشتغال ساستهم عن لقائهما بالاستعداد لمؤتمر الصلح ، وخاف رشدى وعدلى ان تفلتهما الفرصة ، وكرها الصبر على الهضيمة ، فنفخا فى الحركة الوطنية من روحهما القوى ، وراحا يؤازران الوفد المصرى



لامعنى بكل شيء ولا كل عجيب فى عينه بعجيب

ويشدان عضده من جهــة ،ويشرعان الاضراب للموظفين ، ويستحمسان الجمهرة من جهةاخرى ، حتى كان منامرالنهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ما كان . وتلك اولى عزائم عدلى التى يحصيها له الجمهور .

وهبط ملنر مصر والوفدقائم فى باريس ، ودارت اللجنةهاهنا وهاهنا لعل احــدا يعاطيها او يقاولها ، فاستمسك الناس كلهم عنها ولم يواتها منهم احــد ، فعاذت فى النهاية بالثلاثةالاعلام رشــدى وعــدلى وثروت ، فصارحوها بانها انارادتالجد ، فلاتفاوض فى شــأن مصر غــيرالوفد ، فلتمضالى باريس فهناك الحديث ، اما فى مصر فلن تجدمهما طال بها المقام ، ثلاث قعطط تحدثها فى شأن البلاد ! !

وانكفأت لجنة ملنر الى لندن واستشرفت حقا لمفاوضـــة الوفد ، اذ الــوفد لايتحول الى لنــدن دون ان يستبين موضع خطــوه ، ويــريد ، وبين يديه رجــاء امة ، ان يعــرف فيم مذهبه واين يقع حديثه ، وكيفتكون غاية امره . فدارت الانظار كل مدار ، فلم تقع لهذا المهم الاعلى عدلى ، فدعاه الوفــد فلبى الدعاء وشـــخص الى بــاريس فلنــدن ، فمهد الطــريق ووطأ اكناف الســياسة هناك ، وكانخير معوان للوفد على اداء مهمه الخطير .

والف الوزاره فى صدر ســنة١٩٢١ وشخص الى لندنفى وفد رسمى وفاوض كرزن وادلى اليهبحقوق مصر وامانيها كلها ، وابى ان ينزل على ما اراد الانجليز انينزلوا مصر عليه، فقطعالمفاوضة وعاد من فــوره مرفــوع الراسموفور الــكرامة ، وما كــادت تستقر قدمه حتــى استقال منمنصب الوزاره استقالته الكريمة النبيلة .

واليوم وقد تحرجت الامور ،وتصدت القوة بكل ما عنــدها لتنال مصر فلا يلتفت زعيمهاالاكبر الا الى صــديقه عدلى . وكذلك كان شــأن عدلى دائمــاتلتفت مصر اليه كلما نزلت بهــا الاحداث الجسام .

وبعد فلقد تحسب عدلى رجلا عظاميا تلقى المجد عن آبائه العظام الفاتحين . والواقع ان عدلى يكن رجل عصامى بأجمع معانى الكلمة، وقد لا يعدله فى عصاميته هذه رجل آخر فى البلاد .

فانت تعرف انه ابن نعمة نشأ فى الحسب ، وتقلبت اعطافه فى الترف ، واغناه الله عن طلب العلم وكدح الذهن ومطاولة حوادث الدهر ، ولداته (١) كثير، واكثرهم – وبخاصة فى الزمن الذى نجم فيه عدلى – لا يقع هواه الا على مهارشة الديكة ، ونطاح الكباش والملاعبة بالحمام ، ومعاشره المتبطلين ، والافتنان فى وجوه اللذات ، والغباء الكامل عن كل مايعنى البلاد، فهل صدقتنى ان عدلى رجل عصامى حقا ، اذ خرج عن هذه البيئة ، فكون نفسه كل هذا التكوين ، وعارك من الحوادث ما عارك حتى اصبح من اعظم الذخائر التى تعتد للجلى فى البلاد ؟ وحسبه ما وصفه به صحفى من اكبر الصحفيين فى اوروبا : انك حين تلقى عدلى باشا فكأنك فى حضرة اعظم الوزراء فى « دوننج استريت (٢) » أو فى كيدروسيه » (٣)

وان من يعرفون عدلى ليعدون له عيوبا ، ويحصون عليه آثاما وذنوبا ، وسبحان من تفرد بالكمال .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

فهم يحسبون على طباعه انه« برح « ابن ذوات » فهو قليل الاتصال بالناس ، شديد التحفظ بنفسه عنهم ، لا يزورهم ولا يستزيرهم ولا يستريح الى مجالستهم . ومهما توافى له انسان وتعلق بحبه : فهو لا يطالعه بالهناء اذا دخلت عليه نعمة ، ولا بالمواساه اذا مسه الضر ، ولا يعوده اذا مرض ولا يشيع جنازته اذا مات! واذا طلبه صاحبه لحاجة عامة او خاصة حيره وشتت سعيه ، فذا اراده فى البيت قالوا له فى « الكلوب »

---

(١) لداته : أترابه الذين ولدوا معه وتربوا .
(٢) مثوى الوزارة الانجليزية
(٣) مثوى الوزارة الفرنسية

واذا وثب الى « الكلوب » قالوا فى البيت . ويحلفون على ان اقتحام قلعة للالمان وقت الحرب العظمى ايسر من زيارته فى بيته !

ولو قد كتب لى ان اصبح هيئة سياسية واحتجت فى شأن البلاد الى سعى عدلى باشا لوكلت به (عصبة) من اولاد البلد اولى القوة والفتوة فتسلموه فى صباح كل يوم ، وارادوه على المشى ساعتين فى الاحياء الوطنية ، واكرهوه على ان يفشى السلام ، ويومىء بالتحية لكل من لقيه ، حتى اذا جهد به ردوه فأجلسوه فى البهو وفتحوا الابواب بين يديه وكلما دخل عليه زائر بعثوا وجهه بالهشاشة ، ويديه بالتحية ، ولسانه بنحو : « اهلا وسهلا ومرحبا . زارنا النبى — شرفتنا آنستنا » الخ ثم صفق بيديه فدعا بالقهوة وعرض على الزائر « نرجيلة » فذا ردها قدم له سيجارة فسيجارة فثالثة . فان كان الضيف موظفا سأله عن عمله ودرجته ومرتبه ، واظهر له التوجع على تأخره وتقدم اقرانه ، وان كان زارعا اقبل عليه فسأله عن القطن وما عسى ان يكون قد اعتراه من الآفات ، والمناوبات وشح المياه ومناطق الارز واطفاء الشراقى وسعر كيلة البرسيم اليوم ! .. واذا حضر وقت الغداء — وهنا الكلام — وهم الضيف بالانصراف امسك بطرف ثوبه وعزم عليه ليتغدين معه . وحلف جاهدا أنه لا يجد فى ذلك كلفة ولا يتجشم فى سبيله مشقة . وانا بعد ذلك ضامن لدولة الباشا أن الضيف منصرف غير لابث ، معتلا بالمرض وضعف البنية ، أو بالضيف ينتظره فى داره ، أو غير ذلك من وجوه التعاليل ، ولا يحتمل الباشا من هذه « الكركبة » كلها الا حسن الذكر وسيرورة الاخبار ، بما له من رائع الآثار ، فاذا ذكرت الشجاعة قالوا انه عنتر عبس ، واذا ذكر الحلم حلفوا أنه الاحنف بن قيس . واذا عرض حديث المكارم ، أقسموا أنه أجود من حاتم ، فاذا كان الكلام فى الفصحاء والمقاول زعموا أنه أخطب من سحبان وائل

فأما اذا ظل سابحا فى السماء ، فما أقل حظ اهل الغبراء ، من عدلى باشا فى الزعماء

سعد زغلول باشا

رزقه الله بسطة فى الرزق والجاه فهو ملء العيون ملء الصدور . بلغ فى دنياه مادون التحية (١) ، وأدرك ما وراء الأمنية . اذا غشى مجلسا وفيه قوم جلوس رأى القوم أنفسهم وقوفا ولم يريدوا ، وتنحوا عن الصدر ولم يقصدوا ، وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا ، ورأى سعد نفسه رئيسا ولم يتطلع . فما جلس سعد مجلسا فأقيم عنه لغيره . وكذلك كان يقول الاحنف عن نفسه . فسعد طالب العلم الخامل الذى لايعرفه غير شجرائه، وسعد الزعيم النابه الذى تعرفه الاعاظم والعظائم سواء .

اذا وقف سعد يخطب الناس وثبت الالفاظ من مكامنها ، وأسفرت المعانى عن وجوهها ، وتغايرت فى السبق الى ذهنه ولسانه ، فلو أن كاتبا كتب ما يرتجله ذلك الخطيب لوقعت منه على اسلوب سرى رائع ينقطع دونه تنميق الاقلام . فاذا جلس سعد الى الانشاء وقعت منه على أسلوب لا يغبط عليه كاتبه ، فلو أن حالفا حلف أن سعدا الخطيب هو غير سعد الكاتب لبرت يمينه

يطلع سعد على الناس وهم يرتقبون طلعته ارتقاب المدلج (٢) الحائر طلوع القمر ، فيدانيهم وهو يكاد يتهدم ضعفا ، على وجهه تجاعيد من أثر السنين . فلا يكادون يتلقونه بالتهليل والتصفيق حتى ترى ذلك الشيخ وقد طوى ماضيه القهقرى فالتقى بشبابه وكأنما وثب من الشيخوخة الى الصبا ، واذا

---

(١) الخلود (٢) السائر بالليل .

بتلك التجاعيد وقد أمحت ،وتلك الاسارير وقد أشرقت ، فيخطبهم ما يشاء ، حتى اذاأفاق من سكرة ضعفه وأسكر سامعيه بخمر فصاحته ، انكفأبين التصفيق والهتاف الى داره، فقضى فيها ساعة أو ساعتين منساع الشباب ، ثم عاوده الضعف شيئا فشيئا حتى يدخل فىشيخوخته كما كان ، ومن لم يعرف ذلك الرجل العظيم الذىعلت سنه وتكامل تمييزه ولم يلابسه فى أطوار حياته ، لايشكفى أنه انما كان يتمارض (أو يتصنع المرض كما يقولون) .

ارتاح سعد لمهنة المحاماةلاجل الخطابة ، وارتاح للزعامة لاجل الخطابة ، وهو يرتاح لكل مافيه منفذ للخطابة . ولاغرو فقد من الله عليه بموهبة عظيمة لايمن بها على كثير من عباده ، فهى لاتفتأ تتطلع للظهور فأنى اصابت منفذا اطلت منه ، فلو انك عرضت على سعد ملك الرشيد على ان يهجر الخطابة لنأى عنه بجانبه ولرجع مهرولا الى الزعامة ، فان افلتته فالى المحاماة .

نقل الى بعض خاصته الذين يحجبون بابه انه استأذن يوما لوفد من الوفود وكان سعد فى ذلك اليوم (لقس) (١) النفس متبرما بالناس لكثرة مالاقى منهم ، فقال له : اعتذر ، فقال انهم يلحون ، قال : فأذن لهم على ان يسلموا وقوفا وينصرفوا ، فأدى اليهم الرسالة ودخلوا ، واقسم لى الحاجب انهم لبثوا فى حضرته ساعة وبعض ساعة وهو لاينقطع عن الخطابة .

كنت بحضرته يوما وقد مثل امامه وفد من الوفود فمد بصره اليهم وقال : من خطيبكم ؟ فلمالم يصب فيهم خطيبا كاد يعرض عنهم لولا حاجته الى مناصرتهم .

لذلك تقربت اليه الوفود بالخطباء ، وشاع فى نفوس النشء حب الخطابة تشبها بسعد ، فكثرت الخطباء ، وفى كثرتهم مظهر من مظاهر النهضة الوطنية المباركة ، فسعد مدرسة لاتقفل ابوابها يؤمها الطلاب من انحاء القطر .

انه يتشدد فى الحق ولايترخص فيما يعتقد انه حق ، ذلك كان

---

(١) لقست نفسه من الشيء : غثت وتضايقت .

شانه قبل الزعامة ، فلما ملك يومه واصبح الزعيم الاكبر ابت عليه طبيعة السياسة ان يأخذ دائما بذلك التشدد ، فهو اذا وقفت به الحزبية بين الصواب وبين هوى العامة لايلبث ان يعدل الى الثانية تمكينا لسلطانه عليهم ، يفعل ذلك ، وهو يعدها فى نفسه على نفسه قبل ان يعدها خصومه عليه .

نزل سعد الى ميدان السياسة وهو يظن انها كالقضاء سبيلها الحق والعدل ، فلما خاض غمارها ورأى ماراعه فيها من اساليب المداجاة وافانين الخداع هم بالنكوص ، لولا ان ايمانا رسخ فى قلبه ويقينا ملأ انحاء نفسه ان صاحب الحق هو صاحب الغلب ، حملاه على الثبات فتدرع بهما ووطن نفسه على الكفاح . وقصاراه ان يشهد بعينه دستور مصر وقد سلم لمصر ، وان يرى وطنه مستقلا تحت ظل الله ، فهو يعمل لهذا المقصد الاسمى . ولشد ما يتكىء فى هذا العمل على نفسه ، وما كان ذلك لضعف فى ثقته بمن حوله ، ولكنه رجل قد بنى على الجد والعمل

أبت الناس الا ان سعدا ضيق الصدر . وكيف لايضيق صدره وان كان رحيبا وهو مدفوع بحكم الزعامة ان يقابل كل من يصبه عليه افق السياسة من الزائرين والقاصدين ، وفيهم ثقيل الظل جامد النسيم ، والملح الذى يكاد يستل بالحاحه خيط النخاع ، والمتربح بزيارته ، وذلك الذى تخرج من حديثه ركضا الى طبيب الآذان ، وذلك الذى يقتلع الكلام من فمه اقلاعا حتى لكأن نفسك تطلع منه على حشرجة لا على استماع حديث . دع الجاهل المتصدر والامى الذى يدعى فهم ماغاب عن بسمرك من السياسة ، وما خفى على نابليون فى تعبئة الجيوش من الكياسة . وان جلسة واحدة الى الشيخ (فا ...) لتبغض الحلم الى الاحنف ، ولتزهد الزعيم فى كرسى الزعامة . ولو ان اعداءنا فطنوا لذلك لرموا سعدا فى كل يوم بمثل هذا البغيض حتى يفر من الميدان ، ونخسر بفراره قضية الاوطان

دخل عليه ذات يوم فى داره بمسجد وصيف شاب من المفتونين ، فسلم عليه سلام الاكفاء ، وجلس معه على بساط المساواة

ولم يحتشـــم ذلك المفتون فى جلسته ، فقد جعل يصفر بفمه ويلاعب الجو بسلسلة ذهبيـة كانت فى يده ، ولما قضى شهوته من العبث بحضرة ذلك الشـيخ الجليل التفت اليه وقال : يقولون انك خشن الملمس قريب الغضب ، ولا ارى فيك الا حليما ، فأجابه سعد وعلى فمه ابتسامة الكاظم لغيظه : وكأنك ماجشمت نفسك السفر وجئت لى الا لتسـتثير غضبى ! قم فلست هناك .

وزاره فى بدء الحركة الوطنية احد المتطرفين ، فتجادل فى امر من الامور وحمى الجدال ، فاغلظ المتطرف القول ، فقال له سعد : اتجبهنى بمثل هذا وانت فى بيتى ! قال : لم اكن فى بيتك ! قال : ففى بيت من اذن ؟ قال : فى بيت الامة . فسرى عن سعد وقال له : صدقت انه بيت الامة ! ومن ذلك الحين اصبح بيت سعد بيت الامة .

وان صدرا يتسع لما يضيق عن بعضه صدر الدهر لخليق أن يسمى حامله حليما .

وهو كثير الذهاب بنفسـه ، ولم يجئه ذلك من ناحية الزهو كما يزعمـون ، ولـكن جاءه من ناحية التمكن من النفس .

جلس اليه احد اقرانه وكانت بينهما وحشة لشىء قـد بلغـه عنه ، فقال له سعد وهو يحاوره : اعلم ياهذا أننى معجب بنفسى وكيف لا أعجب بنفسى وأنا لا أرى من يعمل غيرى .

يسره أن يؤكل طعـامه وأن تغشى داره ، ولـكن قلما يسره أن يخالف رأيه ، اللهم الا اذا لمح بعين بصيرته أن من وراء تلك المخالفة اجماعا .

يجلس سعد الى مناظره وفى يد مناظره الحجة قائمة ، فـلا يزال به يستلها من يده شعرة شعرة حتى تصير الحجة فى يد سعد فيقيمها على مناظره .

يسـوءه النقـد الا اذا كان نزيها ، وانى لهذا البلد بالنقـد النزيه ! ان سعدا يكلف الناقدين شـططا ، انسى ان نصيبه من ذلك نصيب كل نابغة مشهور ، وكل عظيم مذكور . وقد جاء فى الامثال : اذا قيل عنك انك نابغة فودع الراحة .

نشأ سعد وفى ثوبه عظيم ،كان فى المحاماة رأس المحامين ، وكان فى القضاء رأس القضاة ،وكان فى الوزارة رأس الوزارة ، ولم يكن فى كل أولئك بالرئيس الرسمى ، اللهم الا فى وزارته الاخيرة .

فسعد عظيم وهو ابن عشرين ،وفوق العظيم وهو ابن السبعين . وقد قال أديب من صفوة أدباء مصر : عظماء الرجال أمثال الجبال ، لاتنتقص الكهوف مالهامن العظمة والجلال .

حافظ ابراهيم

عبد الخالق ثروت باشا

لطيف الحجم ، دقيق الجسم ، لولا بدونة دخلت عليه فى السنين الاخيرة ، طلق الوجه ، عذب الروح ، فكه الحديث .. ولو أنه قدر لك أن تصحبه عشرين عاما دون أن يقيض لك اسمه ماعرفت قط انك فى صحبة هذا الذى لايبلغه العجب .

ويترك فى الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

فلقد تحضر مجلسه فيقبل عليك يحدثك فلا يرتفع بك الى نفسه ، وانما يتدلى بكل حديثه الى نفسك ، فتراه يدارجك فى قولك ، ويكلمك من جنس كلامك ، ويباريك على قدر فهمك حتى تنصرف عنه وقد هيألك وهمك أنه مثلك ، هذا اذا لطف الله بعقلك فلم يهيىء لك أنه دونك !

وانه اذ يتحدث اليك لتختلج معارف وجهه حتى ليتمثل لك فى شخص تلميذ فى السنة الرابعة الابتدائية ! وان حدقتيه لتضطربان فى حركة أفقية ، على انك لو تفطنت لادركت أنها ليست حركة الحائر المتردد ، بل انها لحركة المتعرف المتقرى الذى يريد أن يستل منك ذات نفسك . وانه ليجسها من جميع أقطارها ليبلوها أيها أهون عليه .

ولقد يخيل اليك لطف ثروت ، وتبسطه فى حديثه معك انك مستطيع أن تدسه فى جيبك ، اذ هو قد دسك من أول المجلس تحت نابه ! فاحذره أطلق مايكون وجها ، وانعم حديثا .

لعل ثروت باشا أبعد المصريين نفسا وأعمقهم ضميرا ، وقد حدثنى من طالت به صحبته أنه من شباب سنه قد جعل



لى فى ضمير الدهر سر كامن لابد أن تستله الاقدار

يمرن نفسه على اخفاء نياته ويأخذ معارف وجهه بالا تنم على مافى قرارة نفسه ، وانك لتحدثه فى الجلى ويحدثك فيها وهو متطلق الوجه ضاحك السن حتى ليكاد يملأ عليك المجلس انسا ومراحا ، والله وحده يشهد مافى جوف هذا الهيكل من ثوائر تهد أعصى الرجال ، وتدك أشمخ الاجبال ، حتى لقد دعاه بعض أصدقائه ، وهو مابرح فى مطلع مناصبه (بطرس المسلمين) !

ولقد بالغوافى صمت ابى الهول وقدروا أن من خلف هذا الوجوم الطويل سرا طويلا . أما ثروت فانه أحذر من ابى الهول وأحرص على دخيلة نفسه ، فان وجهه الضاحك منك لالك ليقنعك بأن هذا الخلق لايحقن من السر كثيرا ولا قليلا .

ولو أن انسانا حدثك بأن لسان ثروت لم يسقط من ثلاثين سنة بكلمة واحدة لايريد هو أن يطلقها بكل معناها وما تتصرف اليه من وجوه المغازى لما كان فى قوله متزيدا ولا غالبا .

ولقد تعوزه موهبة الخطابة والتفجر بالقول ، على أنه اذا ارتجلت عليه طارئة خطاب الجمهرة أرسل الكلام ، فى أدق المواقف وأحرجها ، بليغا سلسا نيرا يروعك برشاقته فى التحرف عن كل مالا يؤذن به للسياسى وان فسح فيه للخطيب .

وهو بعد رجل حسن الملقى كريم المقال وافر الادب !

جم التواضع والدنيا بسؤدده تكاد تهتز من أطرافها صلفا

وانه ليقبل عليك بكل ماعنده من الرقة واظهار المودة وشدة المواتاة حتى لتجدنه قد أصبح قطعة من قلبك ، ولتحسبن أنك أصبحت أيضا قطعة من قلبه ، ولعلك لست منه فى شيء أبدا !

وسبحان من قسم الحظوظ فلو أن لى أمنية فى خلق الله لتمنيت عليه تعالى أن يمزج عدلى بثروت على نحو ماتمتزج بعض النقابات والبنوك ، حتى اذا اتحدا وتمت « لخبطتهما » أحدهما بصاحبه شق هذه العجينة الى شخصين وسوى منها رجلين ، اذا لخرجا احسن الرجال ، ولتحقق كل ماعقد بهما من الآمال ، اللهم آمين ! . . .

* * *

وقد بدت مخايل النجابة على عبد الخالق ثروت طفلا حتى اذا استوى لسن التعليم سلك فى المدرسة التوفيقية فكان يملك (الاولية) غالبا على سائر لداته التلاميذ ، وأحرز « البكالوريا » فى سنة ١٨٨٨ ، وخرج فى أوائل من أحرزوها العامه . وقد حدثنى من رآه تلميذا فى مدرسة الحقوق يزور مع والده المرحوم اسماعيل باشا عبد الخالق عالما من أجل علماء عصره ، فاذا هذا الفتى يجادله فى أمور من أمور الدين مجادلة الاكفاء ، ويحاوره فى تعاليل أحكامه محاورة النظراء ، حتى انبعث لسان الشيخ العظيم بتسبيح من خلق هذا الغلام !

وبعد اذ تخرج فى مدرسة الحقوق نابغة رائعا اتصل بلجنة المراقبة القضائية وعين سكرتيرا للمستشار القضائى فكان كل التشريع المصرى قرابة ثلاثين سنة من وضع عبد الخالق أو باشتراكه فليس عجيبا ان يدعى عبد الخالق ثروت فى هذا البلد أبا القانون .

وكان مستشارا فى الاستئناف وكان مديرا لاسيوط ، وكان نائبا عموميا ، ثم كان وزيرا للحقانية فى وزارة رشدى من صدر سنة ١٩١٤ الى صدر سنة ١٩١٩ ثم استقال مع صحبه الذين استقالوا مشايعة للثورة وحفاظا لنهضة الوطن . فكان فى كل المناصب التى وليها لا يعمل الا بالقانون ولا يؤثر الا حكم القانون مهما اختلفت عليه الوان الاعتبارات فقد اتصل القانون بعصبه وجرى فى نفسه مجرى دمه ، ولعل ما أخذ به ثروت باشا بعد اذ اضطلع بأثقل عبء سياسى من تردده فى بعض مواطن الاقدام ، انما كان الوزر فيه كله على حرصه على القانون وتحريه الا يتحرف عنه فى كل مذاهبه ، فان للسياسة أحيانا سبيلا غير سبيل القانون وعلى كل حال فاذا عدت السياسة هذا على ثروت فسيعتدها له النبل ومعالى الخلال .

وكان ثروت وزيرا للداخلية فى وزارة عدلى باشا (سنة ١٩٢١) وقائما مقام رئيس الوزراء فى أثناء غيابه فى مفاوضة اللورد كرزن ، فلما قطع عدلى باشا هذه المفاوضات عاد الى مصر فقدم

استقالة الوزارة . واستوحش مابين مصر وانجلترا ، وسكت المنطق من حيث تكلم الحديد والنار ، وانطلقت القوة تفعل فى هذا البلد ماتشاء ، وفتنت الاحلام فى مصر وانجلترا معا ، وعميت على الناس مذاهب الراى هنا وهناك . ولابد من حل ، فلكل مسائلة قرار ، فأبى داهية الرجال ان يكون هذا الحل على حساب الضعيف ! ...

لا ادرى ولعل أحدا غير الله لا يدرى كيف كان أبو الهول يقلب الراى ، وما كانت تجن خلجات وجهه من فنون الحيل ، حتى اذا استوى له الراى كله تجمع فضرب تلك الضربة الهائلة التى صدعت قيود مصر واطلقتها فى الدول دولة مستقلة ذات سيادة وسلطان ، وسرعان ما آذنت انجلترا الدول بانتهاء حمايتها على مصر ، وسرعان ما آذنها جلالة الملك باستقلال البلاد . وشرع ثروت باشا يسن للدولة دستورا قويا لان مصر الفتاة تأنف العيش الا فى كنف برلمان . وهذا البرلمان يعمل وسيعمل ان شاء الله حتى تحيا مصر اعلى الحياة .

على انه مابرح بيننا وبين انجلترا مسائل جليلة ، وان رجالا فيها ليتربصون الفرص ليتحيفوا من حقوقنا ، فما احوجنا فى امرنا معها الى عزم الابطال . وما كان الله ليخيب رجاء مصر وفيها سعد ، وفيها عدلى ، وفيها ثروت ، وفيها من يحف بهم من رجالات عظام .

فلتحى مصر ولتبلغ كل امانيها فى ظل ائتلافها النبيل .

ابراهيم الهلباوى بك

ماصدق اولئك النفر من العلماء حين زعموا ان هنالك تشابها بين النفس والجسم ، وتشاكلا بين الروح والهيكل الذى يحتويه ، والا كان الهلباوى هذا من احلى الناس وجها وابهاهم طلعة ..... فانه ولا مرية من الطف خلق الله نفسا واخفهم روحا ...

شيخ يتزاحف على السبعين ان لم يكن قد اقتحمها فعلا . لم توجه الطبيعة اية عناية فى تكوينه الى شكله ودله ، فاذا انت جلست اليه مع هذا خلبك بلطفه ، وشعرت بانه تسرب فى كل نواحى قلبك حتى اصبح قطعة من نفسك . وانه ليذكرك بخفة روحه التى تكاد تطير ، اثناء حديثه ، باطراف جسمه ـ قول ابى تمام :

ماذا تقولين فى شيخ فتى ابدا   وقد يكون شباب غير فتيان

وانا اذا تحدثت عن الهلباوى اشعر ويشعر الناس معى ، برغم أنفى وأنف غيرى ، أننا فى رجل غير عادى ، او بعبارة اخرى فى رجل عبقرى .

ولعله لم يفترق الناس فى هوى امرىء ـ اذا استثنينا اسماعيل باشا صدقى ـ افتراقهم فى الهلباوى ، فقد عاش مدى عمره يحبه ناس اشد الحب ، ويبغضه ناس اشد البغض ، الا ان هؤلاء وهؤلاء لايسعهم جميعا الا التسليم بانه رجل عبقرى ، بل لعله لم يجتمع له فى القلوب كل هذا الحب وكل هذا البغض الا لانه رجل عبقرى !

طويل القامة ، عظيم الهامة ، بائن الطول ، مفتول العضل ،



ثورة فى هيكل رجل !

شديد المنة (١) قوى البنية . رأيته يخطب الناس عصر يوم قدم فى صباحه من اعلى الصعيد ، والهلباوى اذا خطب خطب بكله : بلسانه ، وبعقله ، وبنخاعه ، وبعصبه ، وبرأسه ، وبيديه ، وبرجليه ايضا ! وله صياح يقد اصفق الحناجر . ثم تدلى عن المنبر بعد اربع ساعات كاملات فى كل هذا البلاء وهو اشد وآفتى من اكثر من سمعوه ان لم يكن افتى ممن سمعوه جميعا . وما شاء الله كان ! ...

شديد العقل، حاضر البديهة، قوى الذاكرة ، ملتهب الذكاء ، على اننى لا ادرى اتفى كل هذه بحاجات لسانه ام لا ؟ ! ..

محام اى محام ، وخطيب اى خطيب ! لقد يقف فى الجمهرة والناس اكثرهم على غير رايه فيما يجول فيه ، فما يزال يدور على مواطن احساسهم يجسها من ههنا ومن ههنا فى رشاقة وخفة قول ، ولطف شاهد ، وبراعة نكتة ، حتى اذا آنس من الآذان تطامنا من جماح واسترخاء بعد عصيان ، هجم منها بكله على النفوس فظل يهزها هزا، ويرجها رجا . فما الفحل اذا هدر ، ولا الليث اذا زار ، ولا البحر اذا زخر ، باشد صولة على الاسماع من الهلباوى يتدفق فى الكلام، فما يروعك من هذه الجماهير الواجمة الا ان تراها ، برغمها ، قد ارسلت حناجرها بالهتاف وبعثت اكفها بالتصفيق !

والهلباوى خطيبا يشترى هوى سامعيه بأى ثمن : فهو يجد ويهزل ، ويثب ويحجل ، ويضحك ويبكى ، ويعلو ويسف ، ويثقل ويخف ، ويكثف ويشف ، وينظم الدرر ، ثم يرمى بالشرر . وبينا تراه فى وداعة العصفور ، اذا به فى شراسة النمور . كذلك يتشكل هذا الشيخ فى خطبه ويتلون لكل مواقع الكلام !

واذا كان الهلباوى خطيبا عظيما فهو ممثل اعظم !

***

نجم الهلباوى من اسرة فى الغربية كريمة العرق الا انها

---

(١) المنة : القوة .

رقيقة الحال ، فلما يفع قذفت به الى الازهر فعكف على مدارسة علومه ، وقد عرف بين لداته ، من صدر ايام الطلب ، بالفطنة وحدة الذهن والاكباب على تحصيل الدرس . وعلوم الازهر ، كما تعرف ، تقوم على الجدل والمكاثرة بالوان التدليل ، وكان الهلباوى فوق « ازهريته » تيك عنيدا فى رايه ملحا حتى على اشياخه فى حواره ، جريئا على مخاصمتهم فى كثير مما تسقط عليه افهامهم فى مذاهب الكلام .

وهبط المرحوم السيد جمال الدين الافغانى مصر فاتصل به الهلباوى كما اتصل به كثير من أهل المواهب والذكاء ، وكان يعلمهم مسائل من الحكمة ويلقنهم فصولا من فلسفة اليونان كما نقلها العرب منهم . وقد مد السيد الافغانى اذهان طلبته الى كثير مما يحيط بهم ففجر عقولهم ، وجرأ قلوبهم ، ودرب السنتهم على المنطق والمغالبة بفنون الجدل ، وعودهم الجهر بالراى دون الخوف من احد . وفى ثنايا هذا كله كان يبعث فى نفوسهم دعوة سياسية جريئة .

وخرج الهلباوى بعد هذا الى ميدان العمل فاتصل اتصالا اوفى بالبيئات التى تفهمت حياة الغرب وتروت علومه الحديثة واخذت احلامها بمنطقه الطريف . وهكذا اصبح الهلباوى خليطا من كل ما تقلب فيه من اطوار الحياة !

وما اجتمعت هذه الاسباب كلها فى نفس الا اضطرمت وثارت فلا تعود تستريح الى قرار . فلاعجب اذا كان الهلباوى ثورة دائمة فى هيكل رجل ، والبركان دائم الفوران ، فهو ينفجر من حين الى حين وان احتقن الى حين

ولقد يكون ما يظنه كثير من الناس ترددا فى الهلباوى اثرا من آثار هذه الثورة النفسية ، فان الثورة لا تعرف نظاما ولا تستوى فى شبوبها لطريق .

ولعل موقفه يوم دنشواى كان مظهرا من مظاهر هذه الثورة

على انها هذه المرة كانت ادنى الى تحدى الجمهور منها الى ما اعتاد من تحدى السلطاء من اهل الحكم وفى كل حال فقد كانت منه كبيرة، ولعلها كانت سقطة الرجل العظيم

على ان احدا لم يجرؤ على ان يحيل تردد الهلباوى ، الذى قالوا على طلب منفعة شخصية من منصب او جاه او مال .

***

وقد صحب القضاء المصرى الحديث ودارجه من او نشأته الى اليوم ، فلم تكد تقع قضية ذات شأن فى البلاد الا دعى لها الهلباوى فافتن وابدع وله فى هذا الباب جولات معدودة له على وجه الزمان . فلاعجب اذا عد صحيفة من أحفل صحف القضاء المصرى وأظهرها حواشى ومتونا .

وقضى هذا الزمن الطويل محاميا واضحا أمينا مجدا فى عمله حريصا على أداء واجبه ، لم تحص عليه كرة واحدة مما يخمش وجه المحاماة .

ثم هو فى علاقاته الشخصية شديد التوانى لاصدقائه حريص على مودتهم ، لايقصر فى أداء أى واجب لاى كان منهم . ولا أحسب الهلباوى قد عادى أحدا أو عاداه من الناس أحد الا فى شأن عام .

وانى كلما جاش فى نفسى الحقد على الهلباوى بك هرولت الى مجلس النواب فشفيت صدرى برؤيته ، بعد كل ذلك ! ، وقد امتثل حقا لحكم النظام ، فهو يرفع اصبعه بطلب الاذن كلما أراد القعود أو القيام ، وكلما راد السكوت أو الكلام ، وكلما طلع أو نزل ، وكلما عطس أوسعل ، وكلما تحرف أوتخطى ، وكلما تثاءب أو تمطى ، وكلما دلك أكارعه ، أو فتل أصابعه . ولا بد من الخضوع والطاعة . لكل من ينتظم فى سلك الجماعة والا ساء النظام ، واضطرب حبل الاحكام !

وكذلك أخمدت الحياة النيابية هذه الثورة الشيخة الفتية .

وانى اذا لم أصفه فى موقفه الجديد بانه أصبح « كالوحش يستدنيه للقنص المحل » ، فانى أقول له : « ولا بد دون الشهد من ابر النحل » ! ! !

الدكتور محجوب ثابت

لاشك فى ان الدكتورمحجوب ثابت يعد ، بحق ، فى ميراثنا القومى ، ولو – لا أذن الله – جرى عليه القدر لكان لابدللامة من (دكتور محجوب ثابت)بأى طريقة من الطرق . نعم هو فى ميراثنا القومى لايقل عن آثارسقارة ، وجامع السلطان حسن ، ومقابر الخلفاء . ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الاهلية كحفلة المحمل ، ووفاءالنيل ، وركبة الرؤية ، وشم النسيم ! . ولما فكر المرحوم محمود بك رشاد فى جعل العلم المصرى محلى بصور بعض الاثارالقديمة ، فرعونيةواسلامية لم ير المصور بدا من ان يرسم بجانب الهرم وابى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعودصورة الدكتور محجوب ثابت .

والدكتور فى المصريين كانجلترا فى الامم ، كل منهما يرى عليه للاخرين تبعات لاتنقضى على وجه الايام ! فاذا كان الكلام فى النيل وما عسى أن يجتازه عن مصر خزان مكوار تولى « الدكتور » الكلام وملكه على جمهرة المهندسين ! واذا كانت الثورة تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية ، وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة كان ناظورتها(١) الدكتور ، وكلما ساروا «بضحية حرية » كان الدكتور أول المشيعين ، فاذا كان اجتماع فى الازهر كان الدكتور فارسه المعلم وعذيقه المرجب . فاذا تعانق الهلال والصليب ، استأثر الدكتور من عناق الاب سرجيوس

---

(١) الناظورة : سيد القوم المنظور اليه منهم .



ليس على الله بمستنكر   ان يجمع العالم فى واحد

بأكبر نصيب . فاذا وجد دهماء المصريين على الارمن وهم بعضهم بايقاع الأذى بهم طاف الدكتور بعربته (ومكسوينيه) على دورهم فتقلهم وعيالهم ومتاعهم وأثاث بيوتهم الى مأمنهم . فاذا غضب الاروام من أن بعض الرعاع أصابوا منهم على وهم انهم أرمن، شخص الدكتور فى الركب الحافل الى دار قنصلهم فخطب جمعهم باسم مصر ومادهم حبال المودة ، وعقد معهم ، باسم الامة والحكومة أيضا ، فنون المعاهدات . واذا كان جمع الاموال للوفد أغلق الدكتور عيادته « بالضبة » وهاجر الى قنا فلبث الاشهر الطوال ، يجمع ماتحتاج اليه القضية من جليل الاموال . فاذا كانت مشاكل العمال أبى الدكتور الا أن يتفرد بها من دون الناس جميعا ، فانتفض نقيبا لعمال العنابر ، ولفافى السجاير ، وسواقى الاتومبيلات ، وشيالى المحطات ، وندل (١) الفنادق والقهوات ، وجميع طائفة المعمار ، وأصحاب الحوانيت من كل بدال وبقال وجزار ، وعمال المطابع ، وكناسى الشوارع ، وصناع الخيم ، ومساحى (الجزم) ، ولو فكرت طوائف الجرذان والسنانير ، وجماعات الجعلان والصراصير ، فى أن تتخذ لها نقابات لتمثل الدكتور ثابت فيها خطيبا ، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا !

وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل مافى البلد من هابط وصاعد ، وقائم وقاعد ، وغاد ورائح ، وسانح وبارح ، ودارج على متن الغبراء ، وسابح فى جوف الماء ، وطائر فى جو السماء . فاذا كانت هنالك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور محجوب فهى عيادته فقط ! ذلك بأنه ليس برجل أثرة ، بل هو رجل ايثار ، يعنى من أمر قومه بكل دقيق وجليل ، أما خاصة شأنه فلا يعنيه منها كثير ولا قليل .

ولا أحسب رجلا فى مصر ولا فى انجلترا مشغولا بالسودان شغل الدكتور ثابت (٢) ، فحديث السودان يجرى منه

---

(١) الندل : الخدم .

(٢) وكان هذا قبل أن ينتخب عضوا فى مجلس النواب .

مجرى النفس ، ولو هيىء له ،أو لو هيىء لك أنت ، على الاصح ، ان تستمع له لحدثك فى شأن السودان ثلاثين عاما متصلة لا ينقطع ولا يتحبس ، ولا يتلجلج ولا يتلعثم ، ولا يمل ولا يكل ، ولا يبطىء ولا يزل .

وللدكتور فى مشكلة السودان نظرية طريفة جدا ، فانه يرى أن كل العقدة فيها انما هى فى اقناع المصريين وحدهم بقبوله وادخاله بلا قيد ولا شرط فى ملكهم الخالص ، فهو كلما رأى رجلا او امراة أو صبيا أو وليدا أقبل عليه « يقنعه » فى قوة وحماسة بقبول السودان ، وتدفق ماشاء الله أن يتدفق بألوان الحجج لحق مصر فى السودان وحاجة مصر الى السودان ، وما أنفقت مصر على فتوح السودان ، ومن أبلى من أبناء مصر فى حروب السودان . ولو أن رجلا مسح السودان شبرا شبرا ، وذرعه فترا فترا ، ماكان أعلم به من الدكتور ثابت ، على أنه لم يره ولم يزره طول حياته مرة واحدة . وقال له بعضهم يوما : لقد جعلت السودان شغلك يادكتور حتى أصبحت رمزه فى هذه البلاد ، فهلا زرته وتفقدت أهله ؟ ففتل عثنونه وقال : لاحاجة بنا الى هذا فقد عرفناه وخبرناه ... ولا أدرى أكان هذا من الدكتور ورعا أم كسلا !

ويظهر ان الدكتور ظن بعد لأى ان المصريين غير مقتنعين بضرورة « أخذ » السودان فشخص الى سوريا ليقنع أهلها بضرورة « أخذ » المصريين للسودان ! فقد بلغنى أن ذلك كان حديث الدكتور هناك فى مسائه وصباحه ، وغدوه ورواحه ، وموضوع مفاكهاته واسماره ، فى مقامه وتسياره .

ورأى الدكتور فى « أخذ » السودان أبدع من رأى ذلك الفلاح المكارى اذ قال لاخوانه يوما ، كيف لا تهنئوننى ؟ فقالوا : بماذا ؟ فقال : باننى سأتزوج بنت السلطان ، فقالوا له : وهل قضى الامر ؟ قال : بل نصفه ، فاننى وابى قد رضينا ولم يبق الا هى وأبوها ! ... اما الدكتور — أعزه الله — فانه لايرى بين المصريين وبين اخذ السودان كاملا بلا قيد ولا شرط ، ومن

فوقه ملحقاته وملحقات ملحقاته الا أن يرضوا هم ! ... وقد قلت له يوما : ألا جعلت بعض همك اقناع الانجليز أيضا بترك السودان لاصحابه المصريين ؟ فأجابنى بكل قوة وثقة : لا ! مايقولوش حاجة !!!

حقا أن هذا الرجل أمة وحده ، وانه لعبقرى لايتدلى الى منطق الناس وأسباب تصورهم ، فان له قياسه وتقديره ، وله منطقه وتفكيره ، وله أسلوبه وتدبيره . وأظهر صفاته فى هذا الباب أنه لايحفل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا ، فحسبه أن يشتهى الامر فيقدره واقعا ، أمكن ذلك الامر أو استحال ، ومثله من تخيل ثم خال . ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا فى أن ينتظم عضوا فى الوفد المصرى ، وقد وسوس له شيطان من الانس بأن عدلى باشا فكر فى تعيينه مستشارا فى الوفد الرسمى لولا أن انتهى اليه أن سعد باشا سيلحقه بالوفد المصرى ، فكان جوابه على الفور : مافيش مانع ياسيدى ! وهكذا طمع الدكتور فى أن يكون عضوا ، معا ، فى الوفدين المتقاتلين سنة ١٩٢١ !

وأذن الله ودخل الدكتور فى الوفد المصرى طبعة ثالثة أورابعة بعد ما عصفت القوة بجلة رجاله سنة ١٩٢٢ ، ثم بدا له ، لأمر ما ، أن « يشلحه » فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهورة بتوقيعات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها ، اذ الدكتور مصمم على انه ما برح عضوا فى الوفد يلتمس « لعضويته » المعاذير بانه ربما دعى للتوقيع فغاب ، أو ارسل اليه فلم يبلغه الكتاب ، على حد قول الشاعر :

نحن قوم اذا دعينا اجبنا   واذا ننس يدعنا التط...!
ونقل علنا دعينا فغبنا   واتانا فلم يجدنا الرسول ؟

وظل الدكتور برغم طول المدى وذيوع الاخبار « بشلحه » مصمما على انه مازال عضوا فى الوفد . وقد جادله بمحضرى فى ذلك قوم ، فكانت كل حجته ان محمد افندى (كذا) قابله يوما

فحياه وقال له: « يعنى ماحدش بيشوفك يادكتور ؟! » ومحمد افندى هذا يزور السيد حسين القصبى أحيانا ، فلا بد ان يكون سمع هذا من الوفد ، فكيف تزعمون بعدها اننى لم أبق عضوا فى الوفد ؟

هذا كلام له خبىء معناه ليست لنا عقول !

ومن أظرف نوادره انه فى غيبة الرئيس الجليل حدثت بينه وبين بعض رجال الوفد جفوة ، فانقطع عن زيارة بيت الامة ، فقيل له : ان السيدة انيسة الرشيدى نازلة بدارك ، وهى تستقل كل يوم مركبتك الى بيت الامة ، والناس كلهم يعرفون «مكسوينى» وانهم ليرونه هناك فلا يشكون فى انك الزائر ! فقال : لقد نبهنا على الاوسطى « على » اذا نزلت السيدة ان يقف على الرصيف الثانى احتجاجا !

وكانوا يرشحون لمناصب المفوضين والقناصل لتمثيل مصر فى البلاد الاجنبية ، فتقدم الدكتور ، فقيل له : ولكنك حذقت الطب ، أما التمثيل السياسى فشىء آخر فقال : ومن أخبر به منا يا ولدى ! لقد عجناه وخبزناه ، فقد كنا فى (جنيف) وكان يجلس معنا أحيانا على بعض قهواتها سكرتير قنصل انجلترا وتناول الشاى معنا مرارا !...

والدكتور محجوب ثابت عريض الالواح بعيد مدى العظام لولا ان فى جسمه رهولة ، أميل الى الطول ، فاذا مشى خلته أحدب وما به حدبة ، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين ، عريض الجبهة الا ان اسفل وجهه اعرض من اعلاه . يرسل سبلته وعثنونه وشعر عارضيه فى هيئة لطيفة مقبولة ، وله عينان رقيقتان ترتسم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى الى انسانها ، وهما دائمتا الحركة والاختلاج . وهو بعد طيب القلب ، مكفوف الاذى ، عذب الروح ، حلو الحديث ، ضحوك السن ، يتحرى فى قوله

غريب اللغة ، ويلتمس الشاهد من مأثور شعر العرب ، وقد يجيء به احيانا مكسورا غـير متزن . اما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جزت بداره مـرة فرأيت بنتين صغيرتين تتلاعبان، فقالت احداهما للاخرى : هـذا بيت الدكتور ، فسألتها : ومن الدكتور ؟ فقالت لها : ألا تعرفين الدكتور الذى يقول يا بنت هاتى القبرة ! (الابرة)

وفيه ذكاء حاد يديم القراءة والنظر فى الكتب وكأنه يحفـظ بظهر الغيب كل ما يقرأ ، تعرف هذا من علمه الواسع الذى يكاد يستغرق كل ما فى الدنيا وكـل اسبابها ، الا ان علمه ، مع الاسف يختلط بعضه ببعض ، حـتى ليخيل اليك ان رأسه « كتبخانة مدشـوتة » . ولو قد ملكت أمره ، وكانت لى بسطة فى المال والسلطان لدعـوت بمستشرق المانى فنى لينظم هذه المكتبـة العظيمة فيضم كل شـكل الى شكله ، ويجمـع كل جنس الى جنسه ، ويرد كل معـنى الى بابه ، ويصف كل فن فى «دولابه»

ومن أخص صـفات الدكتور ثابت انه لا يكاد يشعر بمرور الزمن ، واذا كان من آية يوشع ان الشمس رجعت له مـرة ، فان من آية دكتورنا عند نفسه ان الشمس تثبت له موضـعها على طول الزمـان ، فأنت اذا دعوته ليتناول الغداء معك اقبل عليك الساعة ٥ بعد الظهر حتماً غير ورع ولا اعتذار . ولقد دعاه صـديق لى وله لتنـاول الافطار فى رمضان ولبثنا ننتظره برهة فلما أيسنا منه افطرنا ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مشمرا للفطور ، وما كان أشد دهشته « يقينا » اذ علم اننا افطرنا من اربع ساعات فانطلق يزمجـر و « يزوم » ، ويعتب ويلوم !

ومما يذكر للدكتور فى هذا الباب أنه ما أدرك قط القطـار الذى يعتزم السفر فيـه ، حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه اذا آذنهم بالسفر الى بور سعيد فى قطار الساعة السابعة صـباحا شخصوا الى المحطه لتوديعه فى قطار الساعة ١١ ، واذا آذنهم

بالسفر الى الاسكندرية فى قطار المفتخر كانوا فى وداعه بقطار الساعة ٧ مساء .

وسافر مرة الى الاسكندرية لوداع الآنسة سنتيا موير الصحفية الامريكية ، وأخذ تذكرة للذهاب والاياب على أن يعود من يومه ، فلبث هنالك قرابة شهرين ونصف شهر .

ولو قد ذهبنا نعدد لطائف الدكتور محجوب وبدائعه ، لما اتسع للحديث مثل هذا المقال . وانه ليجمل بنا فى موضع الانصاف أن نقرر أن الرجل شريف النفس ، عفيف الجيب ، جمع للنهضة المصرية من مديريتى جرجا وقنا قرابة خمسة عشر ألف جنيه ، أبلغها كلها محلها ، لم يقتطع منها درهما واحدا حتى ولا لاجرة القطار وسائر نفقات السفر وهى غير قليلة ، فضلا عما احتسب عند الله من خراب الاجزخانة ودمار العيادة وفرار الزبائن وسرقة شبابيك الدار .

وهو لا يتعمل للدرهم ولا يجرى وراءه ؟ أما اذا سقط الدرهم الى جيبه فلا الى رجعى ، فمثله فى ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفأر ، فاذا سقط اليها الفأر فهيهات ليس له منها فرار . وله فى هذا الباب أحاديث مذكورة وأفاكيه منشورة .

وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمة وحده بما اجتمع له من الصفات وما احتشد لديه من فنون المعلومات ، وما تكدس عليه من ألوان التبعات . وهو اذا اعتبر لنفسه حق التحدث على كل شى والدخول فى كل دقيق وجليل من شئون البلاد ، فقد وجب بازاء هذا أن يكون لكل مصرى فيه نصيب . وانى لاقترح على الحكومة أن تصدر قرارا بنزع ملكيته واضافته الى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار الآثار ، حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الاعصار ؟

(١)

الدكتور محجوب أيضا

وان الحديث ليحلو دائما فى الدكتــور محجوب راســبا فى الانتخاب ، وعضــوا فى مجلس النواب ، كما يحلو فيــه ملحا فى طب السودان ، ومشغولا عنه بالكلام فى السماط والخوان ، وانى لاوفر هذا الحديث على عتاب صديقى صاحب « الكشكول » على قسوته هذه الايام على الدكتور واغلاظه القول فيه بعض الاحيان . والاستاذ فوزى يداين صاحبــه بقســط كبــير من نجاحه فى الانتخاب ، فلقد طالما أيده بشديد القول فى جريدته القوية ، كما آزره بشخصه فى الاسكندرية اذ حزبه الامر وأعوزه النصير .

والاستاذ انما ينقم من الدكتور أنه حين استوى على كرسى فى مجلس النواب تكرش لسانه فى شدقه وتقبض ، فلم يعد يهتف بالسودان ولا بملحقات السودان ولا بشيء مما كان يمنى به ناخبيه ، ويصدع به رؤوس المختلفين الى (صولت) وقهوة الشيشــه ، ونقابة العمال ، ومطعم (الكوارع) وحوانى محطة الرمل ، والمترددين على عيادته من كل ارمد العين . ومضروب بالفالج ، ومقــروح الكبد ، ومن خرج به جرب أو برص ، وشــاك مرض القلب وخفقــانه ، أو وجــع الضرس وضربانه ، ومصــدورة تدارك بالعلة زفيرها ، وماخض عــلا صياحها وزحيرها . وحين أظفره ناخبوه بمقام النيابة نسى وعوده المعالجة بالسمن والعســل ، وحفر عهوده لاهل مينا (البصل) وترك حديث السودان فى مجلس النواب ، واقبــل على حديث (الكنافة) والكبــاب ، وترديد

(١) مقتبس مما نشر بجريدة السياسة اليومية فى احدى (ليالى رمضان) بمناسبة حملة الكشكول على الدكتور محجوب

ذكر الفطائر المدحوة، والقطائف (المحشوة)، والدجاج والسكابيج والدراج والطهابيج، واللحمان المحمرة، والطواجن المعمرة، وكل ما يعالج بالسمن او بالزيت، وما يصنع فى السوق وما يطهى فى البيت !!!!

وما خفر الدكتور بالذمه، ولا خاس بعهده للامة، فانما كل هم الدكتور كان من أمر السودان أن «يقنع المصريين بضرورة أخذه، وقد سعى الرجل فى هذا ودعا ولبث فى دعوته تيك سنين طوالا لا يكل ولا يمل، ولا ينقطع ولا يحتبس، ولا يتتعتع ولا يعثر، ولا يسكن ولا يفتر، حتى اذا آتت دعوته اكلها «واقتنع» المصريون كلهم «تقريبا» بأن السودان ضرورى لهم وبأنهم لا غنى لهم عن ماء النيل، شمر ذيله وطار الى سوريا وظل دهرا يفشى فيها دعوته، حتى اذا آمن السوريون كذلك بأن السودان ضرورى للمصريين عاد فأمسك عن القول فى السودان وملحقات السودان وما له يقول فيه بعد ان بلغ الرسالة وأدى الامانة ؟ ولو كنت لعمرى مكانه لطلبت الى الامة احالتى على المعاش واثبت فى بطاقة زيارتى

الدكتور محجوب ثابت
مطالب بالسودان سابقا
وعضو مجلس النواب حالا

وحسب الرجل خدمة للاوطان أن «أقنع» المصريين بحاجتهم الى النيل وحاجتهم الى السودان او «الوطنية» كما تعلم فنون، ولله فى خلقه شئون !

الدكتور علي بك ابراهيم

رقيق الجسم ، أدنى الى أن يكون هزيله ، أسمر اللون ، مستطيل الوجه ، غليظ الشفتين في غير قبح ، واضح الثنايا ، لعينيه بريق وفيهما جمال . متفخم اللفظ ، تاؤه بين التاء والطا وزايه بين الزاى والظاء ، وادع النفس ، هادىء السعى ، خفيف الروح ، ظريف المجلس ، لا يجد العنف الى عواطفه سبيلا ، يقصد فى طربه ، كما يقصد فى غضبه

فيه حد الفتى وحلم المزكى وحجى الكهل وارتياح الغلام

ولعل هذا الهدوء العجيب من أبلغ العناصر فى نجاحه فى عمله المرعب الدقيق ، وشأنه كشأن جميع النوابغ فى الدنيا : ليس لهم من مظاهرهم ما يدل على اخطارهم ، الا أنك لا تستطيع الا تلحظ أن لهذا الرجل أصابع ليست من جنس أصابع سائر الناس ، فانها تسترعيك بطولها وسراحتها وانسجام خلقها ، على انه اذا تحدث رأيته يستعين دائما بسبابته ووسطاه فما تزالان كالمقص فى انفراج والتئام الى ان يفرغ من حديثه ، حتى انك لتعرفه من أصابعه كما تعرفه من وجهه ، ولو قدر لمصور أن يرسم أصابعه وحدها لدلت عليه الى غاية الزمان .

لقد تسنم غارب المجد ، وبلغ من الشهرة ما تتقطع دونه علائق الآمال ، وهو مع هذا لا يحفل قط بما كان ولا بما سيكون ولا بما سوف يكون . ولا تحسبه يطمع فى أكثر من أن يعيش فى غمر الناس كسائر الناس



فيه شفاء للناس

ياله من رجل ! لقد تكون فى مجلسه معه غيرك ، ولقد تكون معه وحدك وأنت مفيض اسبابه ومطلع سره ، فتعرض ذكرى فلان الجراح فيقول لك : «بالك فلان ده ، ويومىء لك بأصبعيه سالفتى الذكر ده والله جراح ماله مثيل ! ده شىء من فوق التصور ! لو كان للجدع ده بخت ماكانش حد زيه فى الدنيا !» يقول هذا فى رضا وصدق نفس وراحة أعصاب !.. والواقع اننى لا أدرى أكان هذا كله قد جاءه من طبيعه صفاها الله من كل ما يتداخل ارباب الفنون ، ام انه تمكن من نفسه واستوثق من انه لن يتعلق احد بغباره مهما افتن لاخوانه الجراحين فى الوان الشهادات !

ثم هو شديد العطف على اخوانه الاطباء عامة ، عظيم العون لجماعتهم ، رطب اللسان فيهم .

ومن أظرف نوادره ان رجلا من كبار الاغنياء قدم اليه يشكو علة لا تتصل بالجراحة ، فقال له : يا عم لا شأن لى بمرضك فاذهب الى الدكتور فلان اوالدكتور فلان او الدكتور فلان ، فهم الذين يحسنون «تشخيص» علتك ويقدرون على علاجك . فقال الرجل : بل انما قصدت اليك انت ولست ارضى احدا يداوينى غيرك ، وجئت معى بكذا وكذا من الاموال فخذ منى ، على ان تعالجنى ، ماتشاء ! فقال له الدكتور : وأنت اذا أعطيتنى ماتشاء فلن اداوى علتك لانها ليست من عملى ولا تتصل بفنى انما انا رجل جراح فألح الرجل وتضرع ، فلما أعياه أمره قال له اسمع يا عم ، لو تلف (كالون) بيتك هل تجىء له بنجار أم بكوالينى ، فقال : بل بالكوالينى ، فقال له : مرضك هذا انا لا اعرف فيه ، قال الرجل : فماذا تصنع اذا ؟ قال له : انا افتح لك كرشك ، اكسر رجلك ، اقطع رقبتك ! . وهذا الذى اعرفه . فانصرف الرجل مقتنعا راضيا !

ولست احاول ان اصف لك قدر الدكتور على ابراهيم ولا نبوغ مبضعه ، فحسبه ان سلم الناس اجماعهم له بانه مفخرة من مفاخر

هذه البلاد . ولقد قلت لاحد الاطباء يوما : صف لى براعة الدكتور على ابراهيم ، فقال لى : اعرف انك تحب الغناء وتهوى الموسيقى ، ولو كان لك عرق فى فن الجراحة وقدر لك ان تشهد « عملياته » لوجدت لانامله من الطرب ما لاتجده لانامل «العقاد» وهى منطلقة فى اوتار قانونه الحان الطروب

على ان نبوغه لم ينته الى حذق الطب والمهارة البارعة فى فن الجراحة ، بل ان له فى كثير من « العمليات » ابتكارات من ذلك النوع الذى يؤثر ويدرس ويحدث فى نظريات الفن احداثا .

وانهم ليروون عنه جهداعظيمافى متابعة الحركة الطبية فى العالم ، فهو كثير القراءة والنظر فيمايخرج فى هذا الباب من المجلات والكتب والرسائل ، حتى اذاوقعت له نظرية حديثة فاستوت لذهنه أقدم على تطبيقها بنفسه ، فكان نجاحه دائما كعزمه قويا جليلا .

* * *

وبعد فان جهلا ان يظن امرؤان للعبقريات فى العالم اسبابا معينة معروفة ، فما كان هؤلاء العبقريون اصح من غيرهم ابدانا ، ولا اكثر قراءة ، ولا اعكف من سواهم على الدرس والتجريب وتقليب النظر ، ولا اطلب ممن عداهم لتلك الاسباب المفروضة للبراعة والتبريز ، فلقد كان البحترى شاعرا فى سن العشرين كما كان شاعرا فى سن السبعين ، وكان ابن المقفع كاتبا وهو ابن الثمانى عشرة كما كان كاتبا حين قبض وهو فى الثامنة والعشرين ، وكان رفاييل مصورا رائعا يوم جالت يده بالنقش كما كان مصورا فى غاية عمره ، وكذلك كان على ابراهيم جراحا اول منجمه كما هو جراح اليوم ، انما هى مواهب من الله تعالى يتخير لها من يشاء من عباده لم يتكشف العلم عن كنهها ولا سببها الى اليوم

وانك لتجد الطبيب يصيب دائما فى تشخيص العلة الا قليلا ، وانك لتجد الاخر يخطىء دائما فى تشخيصها الا قليلا ، ووسائلهما فى الفن واحدة ، وحظهما من العقل والعلم وسائر الاسباب متكافئة !

ذلك ان هنالك حسا دقيقا غير تلك الاحساس المعروفة يكاد يتفطن به من آثره الله به الى مطاوى الغيب ، فيقع الشيء فى نفسه يحسبه الهاما لانه لايعرف له علة ولا يحيط منه بسبب ، ومن هؤلاء الذين اصطنعهم الله لهذه الموهبة الدكتور على بك ابراهيم .

ومما يذكر له انه فى سنة ١٩٠٢ لوحظت كثرة الوفيات فى قرية موشة ، من اعمال مديرية أسيوط ، فندبه مدير الصحة ، وكانت له به ثقة عظيمة ، ليحقق الامر . وكان بعد فتى ناشئا ، فادرك انها الكوليرا ، فكتب الى الصحه بهذا وارسل رجيع بعض المصابين لتحلله فلم ير «التحليل» اثرا للكوليرا ، فراجعها وارسل غيره ، فكان الامر كذلك ، فصمم الفتى واستبد من ناحية ، وصمم اطباء مصلحة الصحة وكيماويوها من ناحية اخرى ، ثم ابى العلم وابى « التحليل » الصحيح الا ان يظهر راى على ابراهيم على تلك الاراء جميعا ، وكانت الكوليرا التى عصفت سنة ١٩٠٢ بالبلاد عصفا شنيعا ، والتى أبلى هو فيها ، حتى تقلص ظلها ، بلاء عظيما .



وسبحان من يقرن قضاءه باللطف ، فانه فى الوقت الذى بث فيه هذا الترام فى شوارع البلد وأزقته يدك الرءوس ، ويحصد النفوس ، وأطلقت آلاف الاوتوموبيلات ، واللوريات ، والموتوسيكلات . تقد المتون ، وتبعج البطون ، وتأبى « الشفقة » على ساقتها أن يرسلوها على خلق الله قبل أن يحشوا معاطسهم بالكوكايين ، والهاروين ، وغيرهما من البلاء المبين ، حتى « يغيبوا » عن مشاهدة ماتنسف سياراتهم من الهام ، وما تفرى من الاجسام ، وما ترسل على الناس من الموت الزؤام أ ولا تنس ، جعل الله لك فى كل خطوة ألف سلامة ، تلك السيارات العاصفة ، مالها [illegible] يتخذها أبناء الذوات ومن انحدرت اليهم النعمة . وهى تنطلق انطلاق السهام ، فى أجساد الأنام ، كأن مهمتها فى هذا البلد صنع أرامل وتخريج أيتام — سبحان الذى حين يبتلى البلد بكل هذا يرسل فيه الدكتور على ابراهيم ، يجمع

من أعضاء الناس ماتفرق ،ويرم من أحشائهم ماتخرق ، ويضم من أشلائهم ماتمزق ،حتى أوشك ان يقطع على عزريل ، رزقه من فنه الوبيل !.

ولقد رأيت صديقا لى من اهل الاخطار لا يرى الدكتور على ابراهيم يجوز فى طريق أو يغشى ناديا الا صف قدميه ووقف (زنهار) ورفع يده بالسلام العسكرى ،فقلت له فى هذا ، فقال :«علشان ياخد باله منى يوم أحمل اليه »فقلت له : يالك من رجل مبالغ ، فكان جوابه : على كيفك لك ترمواى يترد عليه !

***

وجل من تعالى على النقص وتنزه عن العيب ، فان جراح الشرق كله لا يملك مستشفى يليق بجلالة محله ولا بآلاف « المجاريح » الذين يطلبون مستشفاه من كل مكان : فقد سلطت عليه شهوة اقتناء « السجاجيد » وألوان الطرف واحراز ما أبدعت يد كل فنان، ما أفتن فيه كل صنع حسان، ومن كل مارثت فيه العصور ونصل عليه لون الزمان ، من دمى وتماثيل ، وتصاوير وتهاويل ،ونمارق ووسائد ، ومعاضد وقلائد ، وخشب منجورة ،وأحجار محفورة ، ومزاليج أبواب ، وسروج دواب ،وشرفات دور ، و « شواهد » قبور ، وضباب مصبرة ، وجرار مكسرة الخ : ولو نفض عنه بعض مايحرزه من ذاك لابتنى مستشفى يليق حقا بشيخ الجراحين ! على أننا نترك الكلمة فى هذا المجلس الحسبى ! ! !

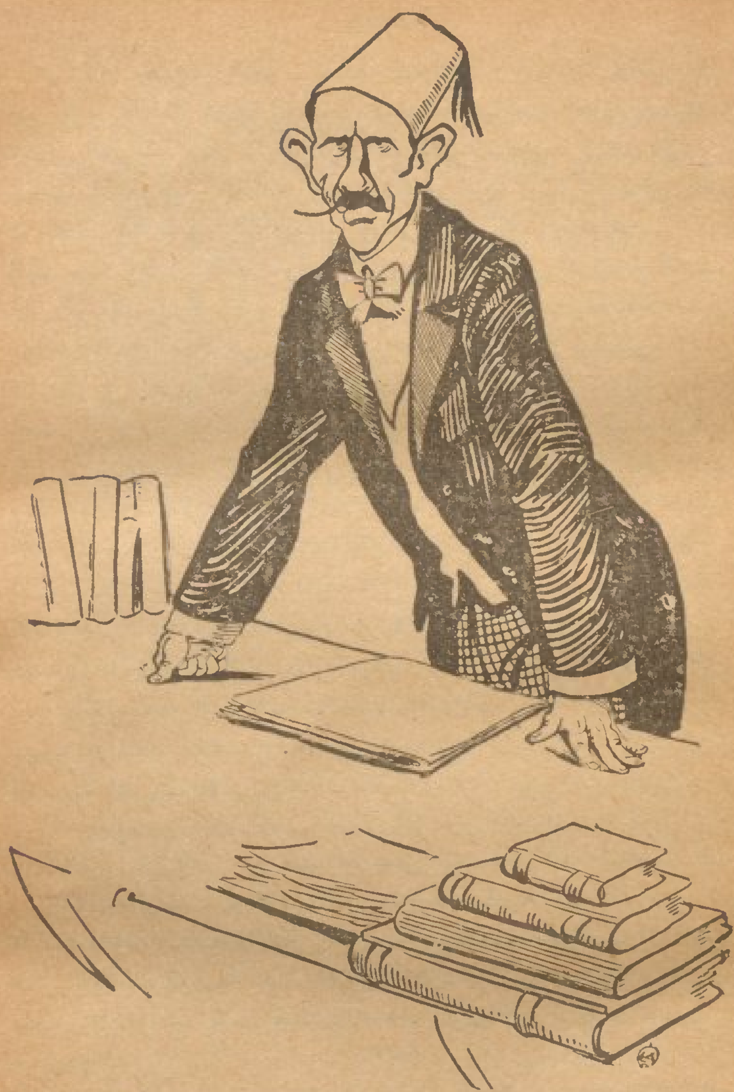
وبعد فان حقا على أهل مصر جميعا ، ومياسيرهم بنوع خاص، أن يسجدوا لله تعالى سجدة الشكر كلما أطلت شمس الصباح عليهم اغتباطا بأن على ابراهيم غير ولوع بجمع المال ، فلو كانت لغيره تلك الاصابع التى تسرق الكحل من العين ، لآثر أن يكون «نشالا» اذا والله لسل الالاف ولاحرز أكثر مما تجدى «الجراحه» أضعاف الاضعاف ، ولما ابقى فى جيب على كيس ، ولاهمى الناس بكريم ولا نفيس ، ولكن قدر الله فكان ، وسبحان من « يعطى الحلقة للى بلا ودان » !!

احمد لطفى السيد بك

لادرى ، أعلمه أوفر من عقله،أم عقله أوفر من علمه ؟ الا أنه أوفى بهما كليهمـا على الغاية . وهو عالم واسع العلم ، وعاقل واثق العقـل ، وذكى متسـعر الذكاء . له عينان حديدتان كأنما تمدهما اشعة (اكس) فلايكاد يقـوم بينهمـا وبين ماتريدان حجاب ، وانه ليحاول أن يسترعنـك ادراك هـذا منه بمنظاره الاسود ، كما حاولت الطبيعة أن تكتمه على الناس بما ضيقت فى محجريهما تضييقا !

وأحمد لطفى السيد قد بان خطره من يوم نجم ، فكان طالبا فى مدرسة الحقوق لاتعنيه مدارسة القانون المدنى ، ولا يحتفل لقانون تحقيق الجنايات ، ولا يهمه أين تقع (نمرته) من سلك التلاميذ فى امتحان غاية العام قدر ماتعنيه مدارسة المنطق والفلسفة وعلوم الاجتماع ، على أنه كان مجليا فى الاولى كما كان مجليا فى الثانية . وبهذا خرج لطفى على غير مايخرج سائر التلاميذ ، خرج وله عرق فى الحكمة والمنطق وسائر علوم النظر لايتسـق فى العـادة لاخـوانه « الحقوقيين » .

درج مدرج نظرائه فى الحياة العملية حتى كان نائبا أو رئيس نيابة ، على أن خطبه فى ذاك لم يكن جليلا ، فقد انصرف همـه ، الا أقله ، الى تحصيل العلم والادب، وأخذ العقل بالتـدبير وصدق النظـر ، وأخـذ اللسان والقلم بفصاحة القـول وقـوة البيان بالحديث والخطابة ، وبالترجمة والتـأليف ، وتارة بالـكتابة فى الصحف فى ألوان المو ضـو عات .



« من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعـلم »
« ومن أرادهما معا فعليه بالعلم »

ثم كان حــزب الامة وكانت « الجريدة » وتهاوت الانظار على من يقوم بها كفاء لمهمها الجسام ، فوقعت كلها عند لطفى السيد ، وتولى الجريدة فكان كاتبا لايبارى كما كان صحفيـا لايضـارع . وبانت له موهبة جديدة أحوج مايكون اليها امرؤ يتـولى تلك « الجـريدة » فى ذلك العصر ، وهى شدة الطبـع والصبر على الخصومة وطول الكفاح . وناهيك بمن يصمد القتال اذ شيخ الكتاب على يوسف يتولاه عن يمينه ، واذ فتى الوطنية مصطفى كامل ينقض عليه أحيانا من شماله ، واذ أمامـه ، ولا أسـمى ، من لايشق فى الكيد غبـاره ، ولاتصطلى فى الجلى ناره ، ومهمـا زعموا ان وراء حزب الامة كانت قوة تعضده وتشد متنه ، فما كان من شأن هذه القوة أن تقرب الى هوى الناس جريدة ، وكانت فى الوقت نفسه تتحدث على أمانى البلاد وتطلب أن يسودها حـكم الدستور ، وان طلبته دستورا « متواضـعا » كمـا كان يهتف أستاذنا الجليل — ومع هذا فقد تهيأ لمقـدرة لطفى أن تستدرج الخاصة وأشباه الخاصة فى عامة البلاد ، وأضحت دار « الجريدة » منتدى أهل العلم والادب والرأى الصحيح ينتجعونها من كل مكان

لم يكن لطفى فى سنيه تيـك صحفيا فحسب ، بل كان أستاذا يشرع فى العلم والفلسفة وفنون الاجتماع ، وكان له طلاب من الشباب أهل المواهب والذكاء ، فما راقك اليوم من علم فلان ، وما أعجبك من عقل فلان ، وماراعك من أدب فلان ، فأولئك ، فى الحق ، أكثرهم من صـنعة لطفى السيد فى تلك الايام .

وهو رجل له ، أو كانت له ، شخصية قوية : له نظره ، وله تدليله ، وله أسلوبه الكتابي ، بل وله ايماءته وحديثه . وان كثيرا ممن كانوا يطوفون به ليقلدونه فى كل ذلك ، فمن أعيا عليه تفهم علمه وادبه راح يقلده فى شكله ودله ، ويحاكيه فى لهجته ومخرج حروفه .

ومن ظريف مايروى فى هـذا البـاب أن فتى من ابناء الحكام أصحاب لطفى كان يعجب به هو الاخر طوعا لاعجـاب الناس ، فكان جهد حيلته فى بلوغ بعض شأو لطفى أن ينسـل الى حلاقه

فيسأله أن يسوى له رأسه كما يفعل بشعر الاستاذ سواء بسواء، ثم يغدو على الناس بعد ذلك يقبض صوته ويرسله ، ويلويه ويعدله ، ويفككه ويلحمه ، ويرققه ويفخمه ، ويثنى عطفيه من زهو واستكبار ، ويهز كتفيه من استنكاف واستنكار ، ثم يعود الى نفسه فيراها قد استوت « لطفى السيد » فى غير جهد ولا عناء ! ... ... ومادام العلم والفلسفة كلها انما تتصل « بالحلاقة » فلماذا يقف صاحبنا عند هذا الحد ؟ وانى لاراه يغذ (١) السير فأسأله : الى أين يافلان ؟ فيقول : الى الحلاق فقد اعتزمت اليوم أن أحلق « مونتسكييه »

أو « اوجست كونت » أو « جان جاك روسو » أو غير اولئك من ضخام الرجال . ومثل هذا عندنا ، لو لاحظت الناس ، كثير !

ونعود الى الاستاذ لطفى ، فقد ظل فى كفاحه وجلاده ، اذ خاصة الناس كل يوم عليه فى اقبال ، حتى ضعضعت أفاعيل السياسة حزبه فكان آخر من القى السلاح . ثم عاد الى النيابة فلم يتصل شانه فيها بجلاله شانه حتى كانت سنة ١٩١٩ فضحى بالمنصب فى سبيل الثوره ، وانتظم فى الوفد المصرى عضوا فكان فيه عنصرا قويا ، وكان اداته فى اكثر مايخرج للناس من بيان مكتوب . وانطلق مع الوفد الى اوربا ولبث معه عاملا نافذا ، ماشاء الله أن يلبث ثم عاد مع من عادوا اول الامر . وتظهر بوادر الشقاق فيبدو له ان يتحفظ فيتحفظ ، ثم يستفحل الخطب فيهديه عقله الى ان يتسلل الى داره فى رفق فيفعل ، فيبقى حلس (٢) بيته سلما كله حتى يطلب لما هو اليق به واكرم فيتولى دار الكتب المصرية ينظر فى شانها بعض اليوم ، وينظر فى شان العلم سائره ، وكان من حظ « نصف العزلة » هذه ، او من حظ العلم منها ، ان اتم ترجمة كتاب الاخلاق لارسطاليس (الى نيقوماخوس) وما كان الابداع فى ترجمة هذا الكتاب بأبلغ من الابداع فى الاقدام على اخراجه فى مثل تلك الايام ! !

---

(١) يغذ السير : يسرع .

(٢) يمكث فيه لا يبرحه .

ولقد فاتنى ان اقول لك ان هذا الرجل الذى ضحى بالمنصب فى سبيل الثـورة ، قـد عاد فضحى بالثورة فى سبيل المنصب فاصبح كما يقول اصحاب الميسر (كيت) لا له ولا عليه . والى هنا ينتهى عندى تاريخ ذلك الرجل العظيم !

وعساك تتحدانى بأنه أصبح الاستاذ الاعظم الرسمى فى كل البلاد من يوم اصبح « مـدير الجامعة » فاجيبك بانى « ماعنديش خبر » بشىء من هذا كله ، وكيف تريدنى على ان اصدق أن الاستاذ لطفى السيد كله اصبح مـدير الجامعة المصرية فى حين لم اسمع بانه افاض على الطلاب درســا او القى محاضرة فى العلم واحدة ؟ فان كنت تريد « بمدير الجامعة » ذلك الموظف الذى ينـكسر همه على طلب كسى الحجاب والسعاة ، و « تسوية » اجـور البـوابين والجنائنية و « العرض » لوزارة المعارف عمن يلزم ترقيتهم مـن جماعة الكتاب ، فليس ذلك بالرجل الذى يعنينا فى مثل هذا المقال

والحق ان لطفى استـاذى وانه ليسوءنى ان يختم حيـاته فى هذه « الجامعة » من حيث يجب ان تبتدىء الحيـاة القوية لعظماء الرجـال ! .

والواقع ان الداء « الاجنبى » قد تغشى تلك الجامعة فى حـين لم نر لذلك « الحكيم » قولا ولا عملا ! ولو كان هذا المقام مقـام تفصيل فى مثل هذا الباب لباديت استاذى العظيم بكثير ! .

* * *

ولطفى بك يجمع الى عذوبة الروح عذوبة الحديث ، وهو اديب تام يحفظ صدرا عظيما من متخير شعر العرب ومأثور أقوالهم ، الى فقه فى متن اللغة ورعاية لدقائقهـا ، وبخاصـة اذا كتب او حاضر او خطب . وله فى ابواب البيـان والترسل اسلوب خاص به ، حاول كثير من الـكتاب ان يتكلفوه فانقطعوا دونه . وهو شـديد الحرص على ان يريك انه لا يعبا بتجويد العبارة ولا يتحرى اللفظ الرشيق اذ هو فى الواقع يجهـد فى هذا ، رغم عنايته بالمعـانى والتكثر من ايراد مصطلح العلماء ، ويتعمل له الى ما دون التعسف

وهذه الصفة فى لطفى السيدانما تتصل باخلاقه جملة ، فهو رجل قد اخـذ نفسه من كل اقطارها بالوان التكلف : يتكلف فى مراح الشباب ثقل الشيوخ ، ويتكلف فى مجلس اللهو هيئة الجد ، ويتكلف عدم الاكترث لاعظم مايكرثه من الامر ، بل انه ليتكلف الكلام « بالجـاف » اذ هو قد نجم فى بيئة لم يعد يرتبطها باهل الريف سبب !

نعم لقد اخذ نفسه بهـذا التكلف كله حتى اصبح له طبعا وسجية . واكبر ظنى انه لو شاء يوما ان يرسل نفسه على سجيتها لتكلف فى هذا كثيرا

ولطفى بك اول من رفع راية « الديموقراطية » فى مصر فى هذا العهد الحديث ، وهو الذى نفخها فى روح الشباب واجرى كلمتها على السنتهم ، وعصارة الحزب الديموقراطى من تلاميـذ لطفى ولاجـدال ، وانك لتراه مع هذا ارستقراطى الفكر ، شديد الاثرة للرأى ! ولقد تخالفه الى غير وجهه فيأبى الا أن يغلبك ، ولقد يغلبك بمحض الجدل يتحرف فيه تحرفا ، وهو رجل يملك حجته ويعرف كيف يصول بها عليك فى الحوار . فاذا كنت أنت الاخر جدلا متمكنا من حجتك وأحس منك السطوة برأيه رأيت فى وجهه تغيرا وآنست من نفسه عنك انقباضا

ولادرى أكان هذا من أثر تمكنه من نفسه وشدة ايمانه بحقه وكراهته أن تنزل من الرأى على باطل ؟ أم أن للمسألة وجها آخر ؟ !

* * *

واذا كنت لم أقع من لطفى على أجل فضائله ، فلعلى قد تهديت الى أجل مكارهة ان كان ماهتفت به يعد فى المكاره ، وانى لارجو بهذا أن أصيب رضاه كاملا . ولقد دخل رجل من الناس على بعض الحكماء فأقبل عليه يمدحه ويعدد محامده ، فقال له الحكيم : ما هذا أولى لك ؟ وان اكبارك لما ترى فى من فضل لدليل على أنك لا ترانى كفئا له ، فلو قد دللتنى على هناتى ! فتلك التى ليست ممتنعة لى

أسال الله تعالى أن يعيننا على خدمة اساتيذنا وأحبابنا ، فنحن فى حقوقهم من هذه الناحية جد مقصرين ! !

اسماعيل سرى باشا

طويل القامة كبير الهامة ، عريض « الوجهة » ناتىء الجبهة ضخم الانف ، مرسل اللحيه والحاجبين ، له عينان متحيرتان ، دائمتا الحركة والدوران ، نفضت الطبيعة على هيكله كل جلال الشيوخ ، ويأبى هو الا أن ينفض على لسانه كل خفه الشباب . فاذا أنت رأيته كدت تعلق نفسك من روعة واكبار : جلالة علم فى جلالة منصب فى جلالة مشيب . حتى اذا سمعته يخوض فى بعض من لا يحبهم ويستريح اليهم لم تكد تملك نفسك من الاستنكار أو ما هو أشد من الاستنكار !

وسرى باشا مهندس بارع ، كفء ، فى بابه ، لكل عظيمة ، وهو شيخ المهندسين المصريين وامامهم غير مدافع . وان له فوق هذا لشهرة عالمية ، فقد دفعه خطره وسعة علمه وصحه تقديره وقوة ماضيه الى أن يسلك بحق فى زمرة كبار المهندسين فى العالم

وسرى باشا ولد فى عائلة رقيقة الحال فى قرية (ريدة) من أعمال مركز المنيا ، ونزح والده الى قصبة ذلك الاقليم لا يتكىء الا على بدنه فيما يكون أرد على شمله ، فاستخدم فى ديوان المديرية فى عمل لا يتسق لذكائه ولا لقوة استعداده ، فتطلعت نفسه الى ما هو أولى به وأجدى ، ولم يلهه عمله المضنى عن أن يتعلم القراءة والكتابة ، وما زال دائبا حتى أحسنهما وحتى عين كاتبا فى مديرية الفيوم ولامر ما نفى عمدة المنيا الى السودان فعين بدله محفوظ افندى ، وأدخل ولده « اسماعيل » فى مدرسة المنيا مع حسن فتحى الذى صار بعد مفتشا للرى ، وظهرت مخايل النجابة على ولده هذا اسماعيل ، وبرع أقرانه ،



لا ابالى أزاء نفع الاقارب والاصهار ، اجف النيل أم ذوت الثمار !

وما برح له السبق عليهم حتى اصطفى فيمن اصطفتهم الحكومة « للارسالية » فمضى الى فرنسا واتصل بكلية « سنترال » حيث درس الهندسة وخرج منها بأعلى شهاداتها

وعاد اسماعيل سرى، فاتصل بخدمة الحكومة مهندسا صغيرا ، وتدرج بكفايته فى مناصب وزارة الاشغال حتى اصبح مفتشا لعموم المشروعات ، ومن ذلك اليوم رنت الآفاق باسم اسماعيل بك سرى فى المهندسين العظام .

وفى الحق ان ما متع به كبد الصعيد (مديرية المنيا وطرفا اسيوط وبنى سويف) من رى صيفى فاقبال زرع فسعة ثروة ، انما كان من صنعة اسماعيل سرى ، مهما عدوا على تلك «المشروعات» من العيوب .

وفى الحق أيضا أنه - بعد أن طويت من صحيفة وزارة الاشغال أسماء المهندسين المصريين حين ودى الردى بعلى باشا مبارك واسماعيل باشا محمد وبهجت باشا وأشباههم من النواظير الاوالى - كان اسماعيل سرى أول من بعث على الالسن أسماء المصريين مع ديبوى ووليم جارستن وأكفائهما من المهندسين الانجليز .

ولو قد ترك اسماعيل باشا سرى فى عمله الفنى البحت لاجدى بعلمه على البلاد كثيرا ، ولكن الرزية كلها فى المناصب ، وقاتل الله المناصب ، فقد قلد الوزاره والوزارة سياسة أكثر مما هى فن ، والرجل لايحذق السياسة ولايفهم منها الا القدر الذى يعصم عليه منصبه ويستديم له أبهة الوزارة وما اليها من الراتب والجدوى على الاولاد والاقارب

ويبالغ صاحبنا فى الاخلاص لهذا المعنى ويفرط فى الحرص عليه الى حد أن يسخر ، اذا دعت الضرورة ، كل ماأوتى من علم وفن لخدمة السياسة ولو أودى فى هذا السبيل ، بكل وادى النيل حتى ظفر فى عهد اللورد كتشنر - ان عد هذا من الظفر - بتلغراف تأييد من حكومة انجلترا يضمن له السلامة « والنغنغة » فى المنصب والجاه على طول الزمان !

وانى لاعرف طائفة من المصريين كانوا ، ولعلهم مازالوا ، يراءون أهل السلطة من الانجليز ويتجملون لهم ويظاهرونهم بالمودة والعطف استخراجا للمنافع ، اذ قلوبهم لاتنطوى من ذاك على كثير . أما اسماعيل سرى باشا فهو لايمارى القوم فى هذا ولا يرائيهم فانه مخلص الحب لهم صادق الصبابة فيهم . يواليهم بالهوى فى سره كما يتشيع لهم فى جهره ، لايتحرج فى ذلك ولا يتأثم ، والاخلاص ، لو علمت ، فنون !

ومن أظهر صفات هذا الرجل أنه وصول لرحمه ، دائب جاهد فى غير ملل ولا سأم على كل مايعود بالخير على ولده واصهاره وسائر عشيرته . ولو مد له فى الحكم وبسط له فى السلطان « لرفت » جميع موظفى الحكومة ، وجمع الى كل فتى من اهله ٤٥٧ وظيفة فى آن واحد ، حتى يستطيع أن يقصر وظائف الدولة عليهم فلا يتولى واحدة منها خارج عنهم . وان له فى دسهم فى الوظائف والقفز بهم الى عليا المناصب لاحاديث تجمع وتنشر ، وأفاكيه تروى وتؤثر ، وحسبك أن تردد النظر فى دواوين الحكومة وسائر مصالحها لتقع فى كل واد على أثر من ثعلبة . ولقد بدا يوما لبعض الحسدة أن يجمع مايجبيه « ال سرى » من أموال الدولة ، فخرج له منها مايقوم بنفقات مصلحة كاملة (وعين الحسود ، فيها عود) حصنت آل سرى برب الفلق ، من شر ماخلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد .

ومن طريف مايروى له ، وكل مايروى له فى هذا الباب طريف ، أن وزيرا كان من زملائه له قريب فى وزارة الاشغال فسأله أن يرقيه الى بعض مناصبها الخالية لانه « قد استحق الترقية » فتثاقل عنه سرى باشا وتعذر عليه ، وتوسط فى الامر بعض اخوانهما من الوزراء ، فقال لهم معالى « وزير الاشغال » : ولماذا أرقى له قريبه وعنده قريبى « فلان » لايرقيه ! فقيل له : ولكنه لم يحن بعد أوان ترقيته قال : اذن نتربص بقريبه حتى يجىء الدور على قريبى . وتعلم أيدك الله ، أن صاحب الحاجة أرعن ؛ فبادر

الوزير الآخر بترقية قريب سرى باشا بالاستثناء فى سبيل ترقية قريبه وهو بحكم الدور ! !

وجاءه مرة أحد زملائه الوزراء من هذا الباب فسأله أن يرقى أحد صنائعه درجة على أن يرقى هو أحد أقرباء الباشا فى ديوانه درجة ، فدار بذهنه « الرياضى » الكبير فى « الحسبة » فرآها « تفرق » ٢٤٠ قرشا فى كل شهر فتوقف أو يوفاها « على داير القرش » وتعاصى الامر ، وتعذر الحل ، وأخيرا وبعد طول محادثات ومفاوضات توسط أحد الوزراء أيضا فى الامر على أن يزيد قريبا لسرى باشا فى وزارته هو مائتى قرش ، على أن هذا كل ما تبلغه طاقته ويدخل فى جهده ، وذلك كله تفاديا من وقوع أزمة وزارية « Crise Ministérielle » وبعد لأى رضى سرى باشا بهذا الحل محتسبا عند الله ٤٠ قرشا فى كل شهر : كانت — لو أن فى البلاد عدلا وانصافا — تعود على بعض الولد أو الاصهار أو الاقرباء ، بشىء ولو قليل ، من اليسر والسعة والرخاء !! وكانت تضحية من نفس سرى باشا هائلة استحق بها أن يقام له تمثال يخلد به « المثل الاعلى » للتضحية والايثار على تطاول الايام والليال ! »

عبد الحميد سعيد بك

عبقرى حقا كما تعنى اللغـة بهـذا اللفظ ، فهو طويل بائن الطول ، عريض وافر العرض ، وافى العنق ، بعيد مابين المنكبين شديد المنـة مفتول العضـل ، اذا تمثل اليك حسبته بقية من هياكل سليمان ! ضخم الرأس والوجه ، تدور من حوله لحيـة كأنها احدى الاجام ، بسقت حول بعض الاكام ! لم يقم عليها منجل البستانى بالتقليم والتشذيب ، ولم يتعهـدها مقصـه بالتسوية والتهذيب ، ولوقـد رفعت النظر الى أعلى وجهه ثم تراخيت به الى أسفل ذقنه ، لرأيت ثم مثلثا متساوى الساقين ! أما روحـه الذى بين جنبيـه ، واما عزمـه الصائل فى نفسه ، فأشبه بسكان هيـاكل سليمان ، منهما بغرائز بنى الانسان ، فهو مارد النفس والقوة ، مارد العزم والفتوة !

نشأ منشأ بنى الاعيان يدليهم أهلوهم الى المـدارس ليحرزوا الشهادات ثم يخرجوا الى خدمـة الحكومة ، وتلك الغايه عند جمهرة أعياننا تشد اليها الرحال وتتناهى عندها مرسلات الامال . على أن التلميذ عبد الحميد سعيد لم تكد تتفتح نفسه لفهم مافى الدنيـا حتى كان له فى أسباب الحياة غير ذلك الرأى ، لم ير الزاد كله فى أن يرسم خريطة ايطاليـا ، وأن يجيد الجزر التكعيبى ، وأن يستظهر من «الكتاب الرابع» بابى الاشتغال والتنازع ليخرج فى النهايه «فى العشرة الاول» ، بـل أدرك من شباب سنه أن له وطنا ، وأن هذا الوطن يتحكم فى شأنه غير أهله ، وأن واجبه ، مادامت بلاده محتلة مضيعه الحق ، أن يكون جنـديا لمصر قبل أن يكون طالب علم فى مصر . وعلى ذلك اتصل هذا الفتى بدعاة الوطنيـة ، وصرف أعظم قسط من الوقت المقسوم لمراجعه الدرس الى حديث الوطن . واذا

كان عبد الحميد سعيد قد أحرز الشهادة الثانوية وأحرز بعدها اجازة الحقوق (ليسانس) فقد اختلس الدرس والمذاكرة لهما من وقت «الوطنية» اختلاسا !

ويهاجر صاحبنا الى باريس يدعو لمصر، ويرفع للعالم حجتها، ويجاهد في سبيلها بما يملك من المال واللسان والقلم، ويتخذ هنالك بيتا يصبح مثابة لدعاة مصر خاصة ودعاة أمم الشرق المظلومة عامة، يجتمعون فيه الفينة بعد الفينة ليأتمروا فى شأنهم ويستفصحوا للدعوة مناهجهم.

وتنهد(١) دول البلقان كافة لحرب الدولة العلية، وتجرد عليها كل مهلكة من آلات القتال، كما تحرك عليها كل ماتغلى به صدور القوم من التعصب الدينى، فيركب عبد الحميد الى البلقان جناح النعامة، واذا هو جندى فى لباس العسكر وسلاحهم، واذا هو يأبى الا ان يقاتل دائما فى الصف الاول، حتى يقع ذات ليلة فى احدى الوقائع جريحا يترسب (٢) فى دمه اذ قد انحسر عنه قومه وأقبلت خيل البلغار، فمازال يتخلج من دونها ويتحرف عنها يتستر بالظلام ويتوارى فى جذوع الدوح لايبالى ماينزف من دمه المهراق حتى يبلغ على هذه الحال خطوط الترك، ولولا هذا العون من الله ماوقعت عين على وكيل مجلس نواب ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ !!

وتدور بعد أولئك الايام رحى الحرب العظمى فينخرط عبد الحميد فى جندها يتحول من ميدان الى ميدان، كلما أهابت به دواعى الجلاد والطعان، حتى اذا تهادنت الامم المحتربة، وظهر الحلف الانجليزى، وتكسرت دول الحلف الالمانى، وانطلقت يد انجلترا فى ملك الله تفعل ماتشاء، هام صاحبنا فى فضاء الارض يتبلغ بالكسرة، ويتروى بالصبابة، وهو سليل بيت نشأ فى الترف

---

(١) نهد لعدوه واليه (من بابى منع ونصر) برز اليه وصعد له
(٢) يتضرج فى دمه كأنه يرسب فيه لكثرته.



من أطاق التمـاس شيء غـلابا   واغتصـابا لم يلتمسه سـؤالا

وتقلب فى النعمة ، لايعنيه من أمره الا أن يدعو حيث كان لمصر، ويهتف ، أنى وقع به القضاء ، باستقلال مصر .

وما أنس لاأنس منظره يوم ٢١ نوفمبر وقد جردت دولة زيور باشا كل ماعندها من جيوش وخيول مهرية ، ورماح سمهرية، وقنى خطية ، وكل عازفة مهمهمة ، وكل قاصفة مدمدمة ، لتحول بين نواب الامة وبين اجتماعهم ، ويخرج عبد الحميد سعيد متسلحا بعصاه التى تزن ٧٣ كيلو ، وقد تهيأ للحرب والطعان فى سبيل اقتحام الصفوف الى البرلمان ، فكان منظره يومئذ « كالنانك » سواء بسواء !

وهو اليوم عضو فى مجلس النواب ، اذا تحيفت السن من بعض فتوته ، وطامن حكم الايام شيئا من جماحه ، فترك حديث مصوع وهرر ، فمازالت له قوة على الوثب الى بلاد الاحباش ، للبحث عن نهر الجاش (١) دعك من أمر سنار ، ومن خزان مكوار !

* * *

وبعد ، فقاتل الله العلم ، وقاتل الله الاختراع الحديث ، فلولا ماأخرجا للناس من بنادق ومدافع ، وآلات ساحقة ، وغازات خانقة ، وطيارات تحلق فى السماء تمطر الجيوش الوان البلاء ، ومدرعات وطرادات ، ونسافات وغواصات ، ترمى بكل فاتك وبيل ، من قذيفة وطربيل ، لكان لعبد الحميد سعيد اليوم شأن لايقل عن شأن الزناتى خليفة ، وأبى زيد الهلالى سلامة ، والبردويل بن راشد ، وآصف شراب الدماء ، واكفائهم من أبطال الحرب والطعان ، الذين سارت بشهرتهم الركبان ، وسجل « التاريخ » بطولتهم على وجه الزمان ! .. ولكن من سوء حظ عبد الحميد بك سعيد أنه يعيش فى القرن العشرين ، ولا ادرى أكان بهذا قد ظلم التاريخ ، أم قد ظلمه التاريخ ؟! ..

---

(١) كان عبد الحميد سعيد بك قدم استجوابا فى مجلس النواب لوزير الخارجية يتعلق باتفاق بعض الدول على نهر (الجاش) .

فكرى أباظة !

متكور الوجه ، اخيف العينين فى ضيق محاجر ، مقرون الحاجبين ، كأنما شق عن فمه بعد أن استوى خلقه ، متوافر اللحم فى غير بدونة بينة ، ولو قد اطلق مع قصره ، للشحم العنان لتمت عليه نعمة الله كلها ! ولو رايته فى اخوته لحسبته بعض تلك النباتات التى تخرج وحدها فلم يتعهدها منجل البستانى بالتسوية والتشذيب !

وفكرى ، على هذا ! على هذا كله ! ! . يكاد من خفة الروح يطير ، ولعل مما يساعده على هذا (الطيران) شكله (البالونى) الخفيف ! حلو النفس ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع (النكتة) ، لو هيء لك ان تجلس اليه عشرين سنة ما أحسست ضجرا ولا سأما ، يسرك حتى فى غضبه وحتى فى خصامه ! وان هذه الطرف البديعة التى يطالع الجمهور بها فى الصحف لقطع من نفسه الفنانة اللعوب يرسلها على القرطاس ارسالا فى غير كلفة ولا مطاولة ولا عناء ، ولعلها بهذا وحده تشيع فى الانفس كل ما تجد لها من أريحية ولذة وطرب .

وهو ذكى متعلم تام الاستعداد على انه صرف كثيرا من هذا الى تمرين تلك الموهبة العظيمة فيه حتى ادركت كل هذا الادراك ، وحتى استأثر بهذا الفن البديع من البيان ان لم يكن قد خلقه فى بلاد العربية خلقا !

واخشى الا يعجب هذا الكلام الاساتذة: علام سلامة ، ومصطفى

صادق الرافعى ، ومهدى خليل ،وصادق عنبر ، واضرابهم من أصحاب اللغة . ولا أقول لهمأن لغتكم لاتتسع لهذا الضرب من (النكتة) وأسباب التظرف ، ولكنى اقول لهم : اذا ابيتم الا يتندر الناس الا بالفصيح الصحيح فعليكم أولا بتحفيظ الامة كلها المعلقات السبع ، والملحمات السبع ، والمذهبات السبع والمنتقيات السبع الخ ، الى استظهار الكامل للمبرد ، والامالى للقالى ، وصحاح الجوهرى ، ومخصص ابن سيده ، والاساس للزمخشرى الخ الخ ! ... وانا زعيم لكم بان الناس لن يعودوا يسمعون فى اعراس (اولاد البلد) فى خلل الغناء فى (قافية اسماء الشوارع) مثلا اللى على جتتك ! ... اشمعنى ؟ الضرب لحمر ! ... بل سيسمعون بدلهان شاء الله : هذا البادى على جثمانك ؟ ... ما باله ؟ ... من اثر المشق بالسياط ! ...

وعلى ذلك فقد حق على هؤلاء وأمثالهم أن يطلقوا للناس حرية القول والكتابة فى طرفهم وسائر حاجاتهم حتى يتهيأ للامة ان تستحيل كلها (شناقطة) و (حماميز فتوح الله) ، باذن الله ! ! !

نعم لقد (تخصص) الاستاذ فكرى اباظة فى هذا النوع من البديع وبرع فيه أيما براعة ، وهذا اسمه يرن به باعة الصحف صباح كل يوم وظهره ومساءه ، ولو اجتمع لامرىء فى بلاد الغرب هذا (الفن) الى هذه الشهرة لخرج فى أصحاب الملايين ، ولكننا ما زلنا فى طريق تقدير الفنون ، على اننا كنا نتهزا بها وبأهلها من عهد قريب !

واذا كان الفن اجدى عليه شيئا فقد اجدى عليه حقا عضوية مجلس النواب ، وذلك الحظ العظيم . وعلى ذكر البرلمان اهمس فى اذن صديقى الاستاذ فكرى بكلمة صادق مخلص : اعلم يا عزيزى ، وفقك الله ، ان وسائل النجاح فى شيء لا تصلح دائما وسائل للنجاح فى شيء آخر ، فاذا كان كل ما اعده

الاستاذ فكرى للبرلمان هو نفس ما يعده للصحف بلا زيادة ولا نقصان فأرجوه الا يتكىء كثيراعلى عيشه الجديد ! وليعلم «أن له ناخبين يتردد عليهم »·وليس معنى هذا ان فكرى قصر فى اداء واجبه النيابى ، او انه لم يكن له فى الامر كفاية، ولكنا انما نطمع فى ان يكون للبلد منه فى البرلمان ،مثل ما لها منه فى عالم البيان .

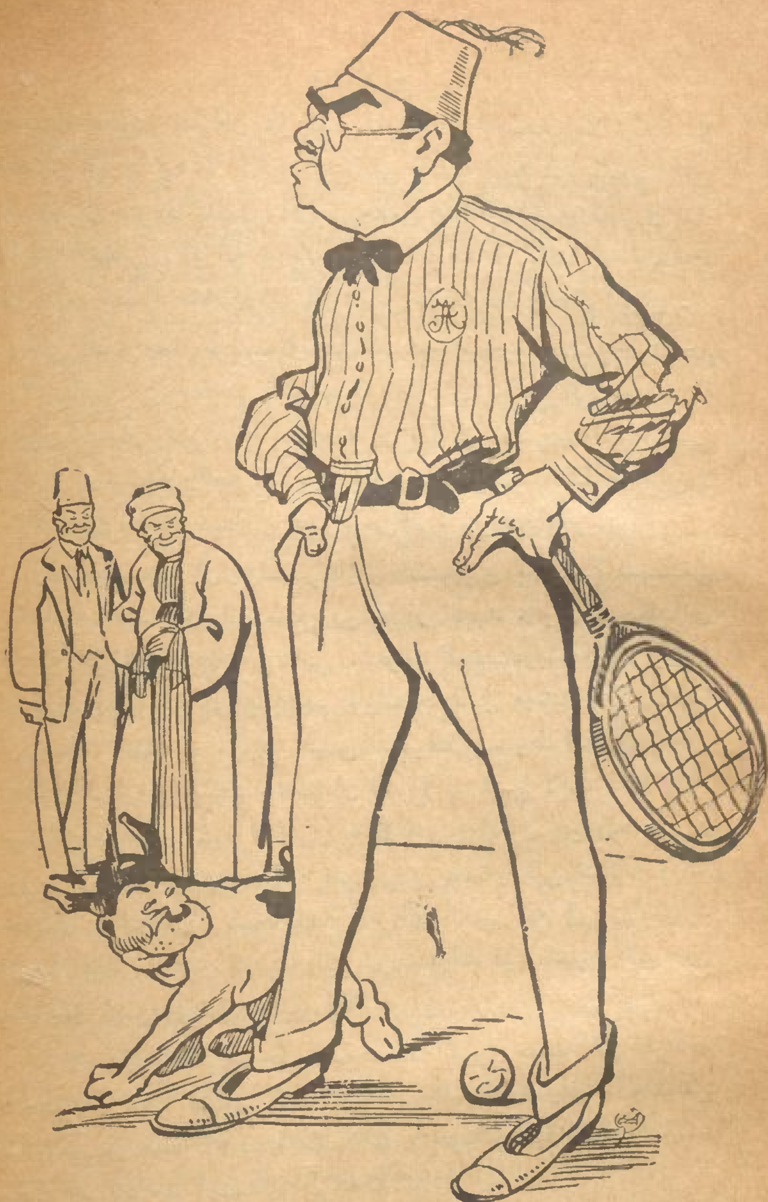
على انه مما يعزينا فى هذاالباب انه ما برح يتهجى (البرلمانية) فى مجلس النواب ،ودنك باب يحتاج الى ممارسة وطول اختبار وتمرين ، اسأل الله أن يمد فى عمرى وعمره حتى اراه فى (سنة رابعة) شيوخ ،خطيبا (برلمانيا) لبقا ، لكن لا كالشيخين المحترمين : عزيز ميرهم ، ولويس فانوس !

ولقد نسيت ان اذكر لك أن فكرى أباظة يشتغل بالمحاماة ايضا ، وانه محام من الطراز الجيد ، وأن له مكتبا فى مدينة الزقازيق يطلبه الناس ،وفيهم الجباه (١) والسروات ، لتولى مهمهم والدفاع فى قضاياهم ،وانه مجد فى مهنته ، ان صح أن هذه مهنته ، لبق حسن التصرف مبسوط العلم بمداخل القانون . ومن هنا تعلم أن النبوغ فى فن لايستهلك دائما سائر مواهب المرء الاخرى ،ولا أدرى أيكون من الخير ان يوزع الاستاذ فكرى قواه على أمرين معا أو على ثلاثة ، اذا حسبنا (البرلمان) شغلة ثالثة ؟أم أن الخير كله فى أن يتجرد لتربية تلك الموهبة الجليلة التى لم يشاركه فيها كثير ، على حين يشاركه ويبرعه فى غيرها كثير ؟؟!!

والاستاذ فكرى خرج من عائلة كبيرة جدا كل أفرادها متعلم ، وكلهم كسائر المتعلمين له فى السياسة رأى ، ولكنى لا احصى فى هذه الآلاف (ماشاءالله) حزبا وطنيا الا فكرى . ولعل هذه من احدى طرفه كذلك !

---

(١) المراد به وجهاء القوم



قبل مايلعب ! . . .

على أن الاخلق به ألا يكون حزبا وطنيا من الطراز الجديد « Moderne » بل ان يكون وطنيا قديميا محجوبيا لا يقنع بالسودان من منبعه الى مصبه ومعه الملحقات وملحقات الملحقات ، فان فى الشرق القريب والبعيد بلادا ضافية الاطراف ، واسعة الاكناف ، أولى بمصر أن تتولاها وصاية وانتدابا مادام الانجليز ، على رأى الدكتور ثابت ، ولعل الفرنسيين أيضا « مايقولوش حاجة » !!!

ذلك هو الاخلق بطريف الخيال ، وليسعد التمنى أن لم تسعد الحال .

منى ان تكن حقا تكن أعذب المنى ‏ ‏ ‏ والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

طلعت حرب بك

لاأحسبك تستطيع أن تتصور « بنك مصر » دون ان تتصور معه طلعت حرب ، ولا أحسبك تستطيع ان تتصور اسم طلعت حرب دون أن يتمثل لذهنك فى الحال « بنك مصر »

وكذلك شاء القدر أن يقرن اسم هذا الرجل بأجل الاعمال .

ولو أن رجلا حدثك من عشر سنين بأن سيكون فى مصر «بنك» يقوم على أموال مصرية ، وتقوم عليه أيد مصرية ، لرددت حديثه من فورك الى التزيد فى التمنى والمبالغة فى التخييل ! . ذلك أننا ، ولا أكتمك اشد ما الح علينا من العلل ، انما كنا نتكىء فى كل مهمنا على محض التمنى وعقد الآمال بما عسى أن يصنع الغير لنا ! أما أن نضطلع بعبئنا ونعالج شأننا بأيدينا ، فذلك مالم تكن تطيقه أذهاننا ! ولقد طالت علينا هذه الحال حتى دبت الينا الظنون بأننا لانصلح لمعالجة عمل قومى ، لامن عجز عن العمل ، ولكن من توهم العجز عن العمل ، حتى توهنت نفوسنا ، وانبرت عزائمنا وانخذلت هممنا ، وشاع فينا ضعف الثقة ، والثقة وحدها متكأ كل ماترى من عظيمات الامور . واذا كنا قد عالجنا كثيرا من المشروعات القومية ففشلنا فيها كلها ، فذلك لاننا انما كنا نقدر هذا الفشل بحكم ماملك علينا أنفسنا من ضعف الثقة . وذلك شأننا كان فى كل ماتطلع اليه من مطالب الحياة !

وأذن الله تعالى لنا بالعافية وأحسسنا ، بعد يأسٍ ، دبيبها فى أنفسنا فى سنة ١٩١٩ ، وهببنا أمة تطلب ماتطلب الامم ، وتهيىء كتفيها لتنهض بما تنهض به فى سبيل مجدها الامم



الوطنيـة الصحيحة تعمل كثيرا ولا تعلن عن نفسـها
((قاسم أمين))

ولست اليوم بسبيل ماقام به أبطال النهضة الوطنية جملة ، ولكننى انما أطوف بالحديث اليوم حول قطعة منه وهى النهضة المالية ، وحول بطل من أولئك الابطال وهو طلعت حرب .
وهيهات أن أصف قدر هذا الرجل الفاتح بأبلغ ولا أصدق من أنه أقام لمصر «بنكا» عظيما يقوم على أموال كلها مصرية ، وتقوم عليه أيد كلها مصرية ، وماشاء الله كان ! .

واذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعد اذ تخاذل الناس وأصبحنا ولا تظن نفس بنفس خيرا ، فقدر أنت مبلغ ماتسلح به هذا الرجل من عزم وثقة حسبهما ان ملآ كل هذه النفوس عزما وثقة ! .

واذا كان طلعت حرب قد أفاد فى سبيله بنهضة سنة ١٩١٩ واستغل اشتعال النفوس بالوطنية وتنادى الناس بالعمل على أسباب القومية ، فقد أضاف الى العزم حزما ، وجمع الى الثقة والاقدام بصيرة وعلما ، ذلك انه عرف كيف يتخير أسعد الساعات وأكفأها لنجاح مشروعه العظيم .

ولم يكن نجاح بنك مصر مقصورا على ذلك المدى الذى تدور فيه منافع البنوك ، ولكن كان له نجاح أوفى وأبلغ ، هو أنه بث فينا الثقة وردنا فى جليلات الاعمال الى أنفسنا ، وأقنعنا بالحس الصادق أننا فى مجال العمل ، غير أهل للخذلان ، ولا للفشل ، فهذه شركات جليلة يقوم بها طلعت حرب كذلك ، ويرفدها بنك مصر أيضا ، وقد قامت كلها قياما كريما ، ونجحت كلها نجاحا عظيما .

هذه شركة للحليج ، وهذه شركة للملاحة ، وهذه شركة للطبع ، ولعله ستتبعها شركة للغزل والنسيج ، واخرى لصنع الزجاج ، حتى انى لاخشى اذا تمادى طلعت فى هذه الشركات الناجحة أن يظن جمهرة الناس أن لانجاح لسعى الجماعة الا اذا قام عليه طلعت حرب ، والا اذا سانده بنك مصر ، وفى هذا مساءة قد تستغرق ذلك الاحسان ، فليتدبر طلعت وليتدبر رجال الاعمال .

وبعد فطلع بك حرب وان لحقته السن مابرح له عزم الشباب حضور ذهن ، وقوة تصور ، ومتانة ذاكرة ، وجودة رأى ، وصبر وجلد على معاناة كل مايليه من أعمال جسام .

وهو ربعة بين الطول والقصر غير متسق الجوارح ، مستطيل الوجه ، لا بالقسيم (١) ولا الوسيم ، لا يرضيك ظاهره، فاذا لابسته تكشف لك عن حسن محاضرة ، ولطف روح وسلاسة نفس ، على خلاف الظن به والرأى بادىء الرأى فيه !

واذا استحال هذا الرجل شعرا ما عدا أن يكون قصيدة فى ديوان أبى تمام ، لا تعجبك مطالعه، على أنك تقع بعدها على أروع المعانى وأشرف الكلام

ولقد تلقاه يوما فيطالعك بكل ما تملك نفسه من أنس وبشر حتى لتحسب أنه اضحى قطعة من نفسك اذا كنت أنت لم تصبح قطعة من نفسه ، ولقد تلقاه يوما آخر فيتولاك بوجه عبوس تكاد تتمثل فيه غيما ورعدا ومطرا حتى لتشعر أنك فى حضرة (زلزلة) لا فى حضرة رجل ، تعينه على ذاك الاذى عين خيفاء ، فان ترفقت بها قلت عين حواء ، حتى لتطرق وأنت تبتهل الى ربك وتسأله أن يلغى المال من الدنيا لكيلا تحتاج الى رؤيه طلعت حرب ! ! ولقد تتبحث الامر وتتبينه فاذا هذه (الحرب) سلم كله ، واذا هذا التجهم فى هذا الوجه لا يدل على أية غضاضة فى تلك النفس ! انما الامر جميع الامر أن الرجل تنوء به جلائل من الامر فيها مايسر وما يسوء ، وفيها ما يبسط أسارير الوجه وفيها ما يربد ضواحيه ، ويعكر نواحيه ، وذلك الحظ الذى يدفعك اليه وهو فى احدى الحالين . فلو ابتغيت قبل أن تطالعه عرافا أو ضارب تخت رمل أو (فاتحة كوتشينة) لكان أرفق بك وأبين لحظك معه!

* * *

واذا كان فى بعض طلعت حرب مالا يعجب بعض الناس فلانهم لم يفهموه ، واذا كان فيه مالا يجمل بالرجل العظيم ، فذلك أيضا من خلال الرجل العظيم !.

---

(١) القسيم والوسيم بمعنى .

وان تعجب لشيء فى شأنه فالعجب كله أنه عضو فى مجلس الشيوخ تعرض عليه ميزانية الدولة وتعرض عليه كل المرافق المالية والاقتصادية فى الدوله ، فيجول فيها لويس فانوس ويصول فيها الشيخ حسن عبد القادر ، ويضرب فيها شيخ العرب يس أبو جليل بجرانه ، وطلعت حرب مدير بنك مصر وأبو المشروعات الماليه والاقتصاديه فى مصر لا تؤثر عنه فيها طول « الدورة البرلمانية » كلمة واحدة ! !.

ولعل هذا أنه يريد أن يربأ بنفسه ، أو بعبارة أخرى يريد أن يربأ ببنك مصر وملحقاته عن أى نزاع سياسى على العموم او حزبى على الخصوص ، طلبا للسلامة وايثارا للعافية .

تعالى الله يا سلم بن عمرو　　　أذل الحرص أعناق الرجال



،جه مصطفى ووجه فريد ، كلاهما لازم لوقت «الشغل» فقط :

حافظ رمضان بك

لو أنك لم تكن رأيت محمد حافظ رمضان بك وبدا لك أن تتمثل رئيس الحزب الوطنى القائم على المطالبه بمصر والسودان ، مضاعا اليهما الملحقات ، سواء منهما ما فى يد الانجليز وما فى يد الطليان وما فى يد الاحبـــاش ، وجلاء الجيش الانجليزى بلا قيد ، ولا شرط ، ولا مساومة ، بل ولا مفاوضة ولا اتفاق ، ولا . ولا . الخ ... لما استطاع ذهنك أن يتمثله الا رجلا عنيفا حاد الطبع ثائر الاعصـــاب ، اذا قاولك وبخاصة فى شأن عام ، تفجر عز مثل بركان ! ... ولكن ...ما أعظم خيبة الخيال حين تقع عينك عـلى حافظ رمضان بك ويضمك مجلسه ، فانه لا يروعك الا أن ترى رجلا وادعا هـادى السعى بطىء الحركة الى حد الجمود تكاد تقطع بأنه قـد فقـد كل اتصال بين أعصابه وبين معارف وجهه . حتى لتوشك ألا يتغير عليها شىء من مظاهر العواطف المختلفة . وانه ليتحدث اليك فى القـانون ، ويتحـدث اليك فى السياسة ، ويتحدث اليك فى جميع الاسباب الدائرة بين الناس فيجيد الحديث اجادة ينقطع من دونها الوصف ، جزاله عـلم ، وصحة راى ، ومتانة حجـة ، وقـوة بيـان ، فى حـلاوة نبرة وعذوبة صوت، وانه ليثير عواطفك، وانه ليبعث معارف وجهك على التشكل طوعا لما أثار حديثه فيك من عاطفة ، أما هو نفسه فساكن وادع ، فتنصرف عنه وأنت تكاد تحسب أنك انما كنت تسمع الحديث من (فونغراف) متقن بديع يدور فى هيكل انسان !

والواقع أن الله تعالى قد وهب هذا الرجل قصدا واعتدالا فى كل شىء ، فهو معتدل الخلق والتكوين، معتدل الاخلاق والسجايا ، معتدل

الحركة والسعى ، معتدل الحديث والرأى ، وهو فى الوقت نفسه، رئيس الحزب الوطنى ! ومبدؤه المطالبة بمصر والسودان والملحقات وجلاء الجيش الانجليزى عن جميع البلاد بلا مساومة ولا مفاوضة ولا اتفاق !

الحق أنى لو كنت فى موضع حافظ رمضان بك لكانت مهمتى أشق مهمة رجل فى العالم ، على أن حافظ بك يضطلع بها فى غير كلفة ولا عناء ! وللعظيم العظائم .

* * *

ومحمد حافظ رمضان ابن المرحوم حافظ بك رمضان، وكان رجلا منقطع النظير فى العلم المالى يوم لم يكن لمصرى فى هذا الباب خطر ، وكانت أعظم المصارف الاجنبية بالضرورة . ترجع الى رأى حافظ بك فى أدق مسائل الفن وأبعدها أثرا .

وأنجب عدة أولاد وأحسن تأديبهم وتعليمهم فخرجوا جميعهم رجالا ممتازين ، فيهم القاضى وفيهم المحامى وفيهم الجندى ، وها أنت ذا ترى أحدهم ، وهو الذى نعقد له هذا الحديث ، فى كبار المحامين ورئيس حزب جليل الشأن فى البلاد .

نعم ، لقد بانت مواهب حافظ من يوم درج لطلب العلم ، وما برح يبرع فيه أقرانه حتى احرز اجازة الحقوق (ليسانس) وأقبل على المحاماة مجدا أمينا حتى تمت كفايته وبعد فيها صيته ، ولما يزل بعد فى فوعه (١) الشباب، يعينه فيها علم غزير ، وعقل شديد وبديهة حاضرة وحجة قاهرة وبلاغة ساحرة . كل أولئك فى صوت كأنما تختلج به أوتار عود . وكذلك كان حافظ بك خطيبا رائعا جليلا .

وقد اتصل من صدر أيام الشباب بفقيد الوطن المغفور له مصطفى كامل باشا وظل معه الى أن قبض الى رحمة الله ، فكان شأنه كذلك مع المغفور له فريد بك الى أن شطت به النوى ، فما برح هو كذلك موصول الاسم بالحزب الوطنى حتى اختير له رئيسا

ومما يذكر له فى هذا الباب انه كان دائما شديد التوافى

---

(١) فوعة الشباب : أوله

لاساطين الاحزاب الاخرى حتى فى الاوقات التى كان السيد وفيق يرميهم بالمقذعات فى جريدة الحزب من غير حساب !

ولقد يبدو لك حافظ رمضان بك كسولا لا يحب أن يجشم نفسه من الامر جليلا ، على أنه اذا جد الجد كان أنشط من الكوكب السيار !

ومن أعجب ما يؤثر له من هذه الناحية انه قدبدا له فى صيف العام الماضى ، اذ هو فى اوربا ، أن يتسلق قمة جبال الالب « Mont Blanc » وعبثا يحاول صدقانه (١) أن يصرفوه عن هذه النية ، والعبث بالعروج الى قمة الالب انما هو ضرب من العبث بالحياة نفسها . ويجمع حافظ همته وعناده معا ويخوض مهاوى الموت خوضا حتى يبلغ غايته ، ثم يتدلى عن قمة الجبل (بالسلامة) والموت خزيان ينظر ويظفر بتلك الشهادة (شهادة المعراج الى قمة الالب) ولم يظفر بها من المقاديم الا قليل ، فكان أيضا حق « Sport » رغم مايرمى به من فرط الكسل وشدة الخمول !

وهو شديد الولع بالشطرنج حتى لقد يجلس الى رقعته خمس ساعات متواليات لايلحقه فيها ضجر ولا يتداخله سأم .

ولقد يظل طوال هذه المدة وفم « الشيشة » فى فمه ، أو فاغرافاه فلا تسمع منه الا تنغما يهمس به أحيانا ، أو « كش مات » فى غاية كل دست ينعقد له فيه الظفر !

وبعد فلا أدرى أكان حافظ رمضان بك فى قرارة نفسه ومطاوى حسه شاعرا يحلق فى أجواز الخيال أم لا ؟ على أن جلسته الطويلة يوسد فيها خده على كفه مهدل الشفة ثابت المحجرين فى جانب الافق ، لقد تدلك على أنه شاعر بعيد الخيال ، ولعل هذا المعنى فيه هو الذى يتخطى سائر مواهبه فيعقد الصلة بينه وبين مبادىء « الحزب الوطنى » !

---

(١) جمع صديق كالاصدقاء

ومع هذا كله فلا محيص من أن تقع المشاكل بين حافظ بك وبين نفسه كلما (زنقته) الحوادث بينه وبين مطالب حزبه ؛ ولكن حافظ بك كما أسلفت عليك، رجل خراج ولاج ، لايغم عليه مشكل ولا يعيبه امر جسام : فاذا حزبه من ذلك شيء عمد الى حل بسيط سهل معقول مقبول ، وهو أن تعجله مسألة « فيحط كنف » على أوروبا معذورا مشيعا بطيب التمنيات !

أليس هذا حلا سائغا معقولا ؟

وبعد فاذا كان التطرف فى الرأى السياسى ضربا من الشعر ، فما أعذب هذا الشعر وما أحوج تكافؤ النزعات السياسية اليه ، على أنه اذا تجاوز حده وخرج عن أفقه فقد أصبح له فى توجيه سياسة البلاد شأن آخر

ولو كان لى من الامر شيء لدعوت بشركة (حافظ رمضان ـ عبد الحميد سعيد اخوان) فخيرتها أمرين : اما ترك التغالى فى الاستجوابات والعوض على الله ولو مؤقتا ، فى الملحقات . واما أن تتولى الوزارة ، وعندها مهلة شهرين لتجيء فيها بالنيل من منبعه الى مصبه ، والملحقات وملحقات الملحقات . والجلاء الكامل بلا مساومة ، ولا مفاوضة (وكمان) بلا اتفاق . على شرط أن تؤخذ عليها التعهدات ، بعدم (حططان الكتف) على أوروبا وقت الازمات ! ! !

حافظ ابراهيم بك

وجاءت نوبة صديقى حافظ فى (المرآة) ولم تغن عنى المطاولة ولاكثرة الدفاع ، كذلك حتم اصحاب «السياسة الاسبوعية» وبذلك جزم القضاء :

فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت ان المنتأى عنك واسع

اذن سأجلو حافظا فى هذه « المرآة » وارمى فيه بالقول ، واذن سأدخل فى الورطة وتحق على الكلمة فى كل حال ! ويح نفسى من عنت اهل العنت من القراء ، فاننى ان قلت فيه خيرا قالوا : شهادة صديق لصديق ، فهى متهمة مهدرة ، وان قلت شرا قالوا : ماانكره للود وماأكفره !

وما لى لا اعوذ من السن هؤلاء بالحق ، فالحق اجدى من مصانعة هؤلاء . وعلى هذا فانى سأطلق كلمة الحق فى صديقى حافظ ، واعوذ بالله تعالى ان يلحقنى فيه قول ذلك الحكيم : « ان قول الحق لم يدع لى صديقا » ولا تنس بعد هذا ياسيدى القارىء مبلغ مايضحى به الكاتب المسكين فى سبيل رسالة يؤديها قلمه اليك لتلهو بها خمس دقائق او ستا ، وهو لايطمع منك فى اكثر من ان تقصد فى حكمك ، وتترفق فى نقدك وشتمك ، والتضحية فى هذه المرة ليست بجسم يتعب ، ولا بمال يغصب ، ولا بقلم يغلب ، ولا بسب يجلب ، انما هى باستهداف ود دام احدى وعشرين سنة للجلجلة بله الزوال ، وهى كانت منن الصبا ، وهى كانت نضرة العمر ، وهى هى الذكرى الباقية تحلو الحياة لمن ابرمه مر الحياة !



فان لم تك (المرآة) ابـدت وسـامة
فقد ابـدت (المـرآة) جبهـة ضيغم

مالى قد غشينى من هـــذه العواطف المحزونة الوالهة ، حين عرض لى اســـم حافـــظ مالم يغشنى قبل لاسم انسان ؟ وفيم كل هذا ولعلى لا اصيب فى صديقى الا خيرا ! حقـــا انى لاخشى ان أكون اليوم مريضا وأن الامر كله من لوثة الاعصاب . فان كنت معافى صادق الوزن فاننى ارجو ان يكون صديقى حين تقع له هذه المقالة معافى متزن الاعصاب .

***

حافظ ابراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعى على اهله ، يجابه بذاك مجابهـــة لايتقى فى القول ولا يتحرف ، وما ان طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوى معارف الوجه الا قال له : يافتى ، ليس الوزر عليك بل على ابيـــك لانه لم يؤد مهرا ! واذا اطردت نظرية حافظ فلاشـــك فى ان المرحوم والده تزوج على الطريقة الافرنجية فلم « يدفع » مهـــرا بل هو الذى اخذ « الدوطة »

جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجســـم ، كأنما قد من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر ساعة فى ان يكون انسانا فكان « والسلام » . اما مايدعى فمه فكأنما شق بعد الخلق شقا ، واما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقا . وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ، فكأنمـــا عهـــد به الى « نقاش » مبتدىء تشابهت عليه الاصباغ والالوان فداف اصفرها فى اخضرها فى أبيضـــها فى « بنفسجيها » ، فخـــرج مزجا من هذا كله لايرتبط من واحـــد بسبب ، ولايتصـــل بنسب . وانك لو نضوت عنـــه ثيابه والبسته دراعه من دونهـــا سراويل ، وافرغت عليه من فوقها جبة ضافية ، وتوجتـــه بعمامة عظيمة متخالفة الطيات ، لخلته من فورك دهقـــانا من دهاقين الفرس الاقدمين ! فاذا جردته كله واطلقته فى البر حسبته فيلا ، او ارســـلته فى البحـــر ظننته درفيلا !.. ولـــكن !.. ولـــكن اكشف بعد هـــذا عن نفســـه التى يحتويها كل ذلك ، فلا والله ما النور بعد الظلام ، ولا العافية

بعد السقام ، و لاالغنى بعد البؤس ، ولا ادراك المنى بعد طول اليأس ، بأشهى اليك ، ولاادخل للسرور عليك من هذا حافظ ابراهيم !

خفيف الظل عذب الروح حلو الحديث ، حاضر البديهة رائع النكتة ، بديع المحاضرة اذا كتب لك يوما ان تشهد مجلسه اخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك أنك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على اغصانه بلابلة ، وأشرق نرجسه وتألق ورده ، فأذكراك طلعة الحب تانك عيناه وهذا خده ! وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت ! والبدر فى ملكه بين المجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء فلاتدرى أأمست السماء فى الروض ، أم أمسى الروض فى السماء ؟.

ولم ار قط رجلا اسرع منه حفظا ولا أثبت حافظة ، ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثبا حتى يأتى على غايتها ، واذاهو قد استظهر اكثر جملها ، أو أبياتها ان كانت قصيدا ، واذاهى ثابتة على قلبه على تطاول السنين ، كذلك لم ار قط رجلا اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مرسلا ومقفى مثل ما اجتمع لحافظ ابراهيم ، فكان حقا له من اسمه اوفر نصيب . واذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق وهيىء لك أن يحاضرك حافظ فى الادب ، لصب على سمعك عصارة الشعر العربى وابدع ماانتضحت به القرائح من عهد امرىء القيس الى الآن . ويمكنك أن تعد بحق حافظا أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربى عرف الى اليوم . وليتهم ، اذ يشرف على السن ، بدل احالته على المعاش يحيلونه على احد « دواليب » القسم الادبى فى دار الكتب ، اذن لعصموا عليها ذخيرة هيهات أن تعوض على وجه الزمان .

واذا اردت أن تتعرف لون شعره والى أى واد من اودية الكلام ينتسب ، فارجع الى اكثر مايهتف به ويردده من شعر من

قبله من الشعراء ، وانه فى هذا الباب ليؤمن قبـل كـل شىء بالصنعة والديباجة ونسـج الكلام ، وما بعد هـذا عنـده ففضل . وهو يرى ، ولقد يزى معه كثير ، أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى وان تزايلت من دونها الالفاظ وأن أدق المعانى وأجلها لقد تقع للدهماء فى حوارهم ومشارع كلامهم ، أما اشراق الديباجة وفصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر . أليس يبهرك ويروعك ويشيع فيك كل الطرب قول البحترى مثلا :

ذاك وادى الاراك فاحبس قليلا	مقصرا فى ملامة أو مطيلا
لم يكن يومنا طويلا بنعما	ن ولكن كان البكاء طويلا

وقوله :

وقفة بالعقيق نطرح ثقـلا	من دموع بوقفة فى العقيق

وقول الشاعر :

ياليت ماء الفرات يخبرنا	أين تولت بأهلها السفن

وقول الشاعر العربى :

فسائل بنى جرم اذا مالقيتهم	وسعدا اذا حجت عليك بنو سعد
فان يخبروك الحق عنى تجدهم	يقولون أبلى صاحب الفرس الورد

وغير هذا من رائع الشعر مالا يتناوله الحصر .

وبعد ، فأى معنى فى مثل هذا يرتفع على ماتبتذل به العامة فى أحاديثهم وأسمارهم وفنون مناقلاتهم ! انما خطره كله فى لطف الصياغة وشدة القول وقوة الاسلوب ، ولو قد ذهبت تؤدى بلغة أخرى أفخر مانظم البحترى وأبو تمام واضرابهما من أعيان الشعراء ماخرجت من ذاك بجليل بل لو أنك تعمدت أبلغ ماقالوا فنقضت غزله ونثرت نظمه ، ماعدا أن يكون كلاما من أوسط ماأعتاده الناس من الكلام !

هـذا رأى حافظ فى الشعر ، وتلك أيضا صورة من شعره ! مشرق الديباجة جزل اللفظ ، صافى القول ، محكم النسج ، رصين القافية ، ترى معناه فى ظاهر لفظه ، فاذا أقبل عليك ينشدك من شعره ابصرت البيت يستشرف وحده للقافية استشرافا حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ ابراهيم .

وحافظ ، كما أسلفت عليك مؤمن كل الايمان بالصنعة ، ولقد يسنح له المعنى الدقيق فيحاول أن يشكه بالقريض ، فان أصابه فى غير قلق ولا اعنات للفظ أو اخلال بقوة النظم ، والا صرف لغيره وجه القريض ، ولربما اصاب المعنى الرفيع فيسره للنظم تيسيرا ، حتى يخيل لك ، اذ تتلوه أنك فى كلام من جنس سائر الكلام ! .

وهو ، كما حدثتك ، حاضر البديهة رائع « النكتة » يتعلق فيها بأدق المعانى فى جميع فنون القول : فلا يحتويه مجلس الا رأيته يتنزى تنزيا من ضحك ومن طرب ومن اعجاب ، وهو كذلك شديد الفطنة حلو الملاحظة لايكاد يعرض لسمعه او لبصره شيء الا وجه عليه رأيا طريفا يصوغه فى « نكتة » عجيبة قد تستقر على سطوح الاشياء ، واحيانا تتغلغل الى الصميم حتى تتكشف الايام منها لاعن طرفة متطرف ولكن عن رأى حكيم ! وهو لا يتحامى فى تطرفه ولا يتحرج فتراه يقتحم عليك بتندره كل مداخلك أنى سنحت له اقتحاما فيصيب من خلقك ومن ثيابك ومن أثاث بيتك ومن طعامك ، على أنه فى كل هذا مرضيك ومؤنسك وباسط أسارير وجهك ان لم يفرج بالضحك من ثناياك ، فأما اذا كنت رجلا ضيق العطن متزمت النفس فلا خير لك فى مجلس حافظ ابراهيم

وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطا مما أصابت يده من الاموال لكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه مافتيء طوال أيامه يشكو البؤس حتى اذا طالت يده الالف جن جنونه او ينفقها فى يوم ان استطاع فاذا استغلقت عليه أحيانا وجوه السبل لاتلاف الاموال عد هذا أيضا من معاكسة الاقدار ! ولعل هذا من انه نضجت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) وقال فيه مالم يتعلق بغباره شاعر فهو مايبرح يطلب البؤس طلبا ويتفقده تفقدا ايثار التجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظا يحققها بيده اذا قصرت فى تحقيقها الايام . وانه لفنان « Artiste » حقا وان فيه لكل اخلاق الفنانين :

توله بالطعن من جميع أقطاره ، فقد يسامحك ويتراخى بالصفح عنك ، أما أن تتولى فنه وتسلك بالطعن صنعته ، فذلك الكسر الذى لايجبر ، وذلك الذنب الذى لايغفر ، وذلك مثار الدمع مايزال عاميا ، وذلك متنزى الجرح مايفتأ على الزمان داميا .

والعجب أن حافظا نفسه ضيق العطن قليل الصبر سريع الغضب ويا ويل الارض منه والسماء اذا تعجل أمرا فألبث دونه دقيقة واحدة ، اذن لهاج هياج الصبى ، فما يجدى فيه التصبير ولا التعليل وما أبدع غضبته وما أحلاها ساعة يهم بركوب مركبة فى الطريق فيرى الخيل قد خلعت عنها أرسانها ، وهناك تسمع منه وهو يكاد يتميز من الغيظ ، أبدع النكات وأدقها ، وقد عجلت اليه الشيخوخة قبل السن ، وضربته أعراض السبعين ، اذ هو لم يذرف كثيرا على الخمسين ، ففاض من أنسه غير قليل ، وشغل بالمرض أو بتوهم المرض ، فما يلقاك الا أبثك علة طارئة وطالعك بشكاة جديدة وتتقسم أوهامه مراجعة الاطباء والمتطببين ، وترديد النظر فى كتب الصحة والاقرباذين ، فما سمع بعلة الا احس اعراضها ، ولا وقع على عقار من العقاقير الا اتحذه وتداوى به !

ومن اظرف نوادره ان صديقا له لقيه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس متربد الوجه فسأله ما به ، فقال له : (ان المصران الاعور عندى ملتهب) فقال له صاحبه : وبماذا تشعر ! فقال : أشعر بوجع شديد هاهنا ، واشار بيده الى جنبه الايسر ، فقال له : (ان المصران الاعور انما يكون فى الجنب الايمن لا الايسر!) فأجابه حافظ من فوره : (يمكن أكون انا ياسيدى اعور شمال)

* * *

ولا احسب شاعرا يجيد الانشاد كما يجيده حافظ ، وان له لصوتا جهيرا فخما رائع المقاطع ، فذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات .

ولا ننس لحافظ يدا جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر انشاء وترجمة ، فلقد طالما استخرج من مجفوها صيغا

طريقة بليغـــة ادت كثـيرا من الاسباب الدائرة بين الناس ممـا تتحرك معانيه فى الانفس ويعيى ادؤه على الاقلام .

وحافظ ابراهيم ، ولا شك ، من مفاخـر هـــذا العصر ومن مباهجـــه معا . اســأل الله ان يبسـط فى عمـره وان يرزقـه العافية ، على ان يقتنع هو انه فى عافية !

وبعد ، فاذا كنت ياصديقى قد وترتك بعض حقـك ولم أعرض جميع مزاياك فلكيلا اجعل لاحد سبيلا الى الاتهام ، واذا ظن بى شانىء انى لم اتسقط كل هناتك ، أن كانت لك هنات اخرى ، فما كان الود ليرينى الا الخير فى اصدقائى ، على اننى اعتذر اليك فى الاولى ، واعتـذر الى القراء فى الثانيـة ، واستغفر الله فى الحالين ، واسأله تعـالى ان يصرف عنى محنـــة الكتابة ويتوب على من فن الكلام

هدى هانم شعراوى

لقد تعرف ان العرب انماأخذوا علم المنطق عن اليونان وعربوه تعريبا ، ودونوا فيه الكتب، واشاعوا البحوث وضربو الامثلة ، على أنهم فى كل ذلك لم يخرجوا عن الافق الذى رسمه اليونان حدا للمنطق تدور فيه قضاياه ، وتتكيف اقيسته فى اشكاله المقسومة ، وكل اولئك مرده عندهم الى العقل ، والى العقل وحده ، فاما القضايا الوجدانية ،واما الاقيسة الشعرية، فلا اعتبار لها ولا اعتداد بها فى معرض الاحتجاج .

وبهذا اضحى المنطق شبيها بالرياضة ان لم يكن شعبة منها .

واما الفلسفة الحديثة ، فلسفة الغرب ، فقد تبسطت قواعدها حتى تناولت نجوى القلب وحديث الوجدان ! وادخلت هذا فى جملة الاقيسة التى تعتبر نتائجها ، ولقد يكون هذا من الحق ، فان شعور النفس احيانا لا يقل صوابا عن حساب الذهن ، بل لقد يسبق الوجدان احيانا ويستشرف الى مالا يهتدى اليه العقل ، وينقطع من دونه جهد التفكير ، فليس عدلا وليس حقا ان يسقط الانسان هذه الأداة القوية النافذة من اسباب تعرفه واستكناهه لحقائق الاشياء !

على ان هذا ايضا لا يسلم من الخطل ، فكثيرا ما يكون موقع الراى فى الوجدان اثرا من آثار الهوى ، او حكم البيئة ، او الظرف الخاص ، او طول الاعتياد او نحو ذلك مما تتجه به نزعات النفس دون ان يكون للحقائق فى نفسها اى اعتبار .

وانما سقت هذه المقدمة الطويلة، المملة ايضا ، لاقرر اننى، فى مسألة المراة رجل رجعى ،لا أرد هذا الى قياس منطقى

عقلى ، على الطراز القديم ، انما مرد الامر كله الى قياس وجدانى على الطراز الحديث . نعم لا ادعى اننى حركت فى الامر عقلى فاثبت لى بعد ترتيب الاقيسة المنطقية ، ان « نهضة المراة المصرية » غير ميسورة اوغير صالحة ، انما هى نزوة الوجدان لا تلهمنى من هذا الاسى وتطير

* * *

وأهاب بى صديق : « فيماتقصر مزاياك على الرجال وفى النساء من هن افضل من كثير ؟» وأول من تنظرت لى من سيدات العصر ، من غير تردد هدى هانم شعراوى ، ولكن ! ... سرعان ما مثل لى تداعى المعانى ايضا مسألة « النهضة النسويه » اذن سأكتب فى السيدة هدى هانم شعراوى ، واذن سأعرض ، برغمى، لحديث «النهضه النسويه»

على أننى لم أر السيدة النبيله ولا بدلى قبل أن أريها مرآتى أن أراها ، ولا بد لى قبل أن احدث عنها ان اتحدث اليها . فكيف السبيل الى كل ذلك ؟ ... ذلك ان أتشفع اليها بصديق لاسألها فى مسأله خيرية

ولقد تفضلت السيدة الكريمة وأذنت لى فى التمثل لها فى قصرها الفخم القائم بازاء دار الاثار ، أو القائمة بازائه دار الاثار

مضيت الى الموعد ورأسى يزدحم بجلائل الافكار عن هذه السيدة النبيلة المزدحم تاريخها بجلائل الاعمال . ولقد ثار المصريون فى صدر سنة ١٩١٩ يطلبون نصيبهم فى الحياة ، وأبت كرائم السيدات أن يتخلفن فى الخدور قنفرن ، فى خفة الى الجهاد ، وفى طليعتهن كانت السيدة هدى هانم شعراوى ولقد يسيغ الرجل الرجعى «مثلى» هذا لاننا كنا فى جهاد ، وهل خلا جهاد من أثر للسيدات عظيم ؟ وهادننا الانجليز وهادناهم ، وسكت المدفع وتكلمت السياسه ، وأبت أكثر العقائل الى خدورهن تاركات ذاك للرجال ، فذلك ، فى رأيى ، من شأن الرجال وحدهم وأبت هدى هانم ، فى سرب من ربات الحجال الا أن تجول فى السياسة مجالا ، ولعله عز على بنت سلطان باشا الذى مثل ... يومصر فى البلاديوم حاصر العرابيون

الخديو فى الاسكندرية وكفوه عن ولاية الحكم ، والذى جرد عليه بعض الثائرين السيف فلم يتتعتع عن التشبث بما أعتقده منجاة للوطن ، ولعله عز على زوجة على شعراوى باشا الذى كان ثالث ثلاثة خاضوا ، فى يوم الروع ، مدافع السلطة وأسنتها ، وراحوا يقولون لعميدها فى شمم وقوة : ان مصر تريد حريتها لانها لا تطيق حياة الرق ، فاذا كنتم ترومون أن تتصلوا بها فلتكن صلة الاكفاء بالاكفاء لا السادة بالعبيد — لعله عز على هذه السيدة التى خاضت المجد من كل أطرافه أن تسكن أو تبلغ مصر غاية مناها من الحرية والاستقلال

على أنها ما لبثت فى ميدان السياسة أن فطنت الى أن لها مهمة أخرى لو حررت لها مواهبها العظيمة ، لكان ذلك ارد على بنى وطنها ، بل على قضية هذا الوطن ولقد اجتمع للسيدة هدى هانم ما لم يجتمع لكثيرات فى هذه البلاد ، اجتمع لها الحسب والغنى ، والذكاء ، والنشاط ، والغيرة الشديدة على النفع العام

وشاء الله لهدى هانم ، أو على الصحيح ، شاء لحظ مصر ان تقبل هذه السيدة بكل مواهبها على ما هو أخلق بها ، فرأت أن المرأة المصرية مظلومة فحق أن تنصف ، محرومة ، فحق أن تعطى ، جاهلة ، فحق أن تتعلم ، وأنفقت ما شاء الله من مالها وجاهها ومساعيها حتى شرعت الحكومة قانونا لسن زواج البنت ، وحتى فرضت من عنايتها نصيبا عظيما لتعليم البنات . وما زالت السيدة تلح بمساعيها على الحكومة فى شأن المراة ، وما زالت عناية الحكومة تتسع لهذا الالحاح الكريم

أما من جهتها هى فقد راحت تعمل على تهذيب المرأة المصرية وتعليمها ورفع شأنها بكل ما دخل فى امكانها من الذرائع : فمن انشاء مدرسة ، الى اقامة ملجأ ، الى تشييد مشغل ، الى نشر مجلة ، الى القاء المحاضرات العامة فى شئون التربية والتعليم

ولم تقنع بكل ذلك فاقامت مصنعا للخزف تحيى به صناعة وطنية قديمة من جهة ، وتعصم به من جهة أخرى طائفة كبيرة من الفتيان المتبطلين من التشرد والاطراد فى طرق الشر والاجرام

ويضيق العمل فى داخل البلاد عن مساحة همتها فتهاجر كل عام الى ديار الغرب لتهتف باسم مصر وتعلى من قدر المرأة المصرية هناك

وأظن السيدة هدى هانم شعراوى أول سيدة مصرية مثلت بنات جنسها فى بلاد الغرب ، فقد وفد على روما من بضع سنين وانتظمت عضوا فى المؤتمر النسوى الذى عقد هناك ، والقت بين أهله خطابا نفيسا دل القوم على أنهم كانوا فى عقيدتهم فى السيدة المصرية جد مخطئين

ووفدت صيف هذا العام على باريس ودخلت عضوا تنوب عن نساء مصر فى المؤتمر النسوى الذى حضره رئيس الوزارة ووزير المعارف كلاهما . ومما يذكر لها بالاعجاب انها لاحظت أنه قد رفعت فى قاعة المؤتمر أعلام الدول التى ينتمى اليها الاعضاء جميعا ماخلا مصر ، فلم تتوان عن الجهر بما لاحظت ، فاعتذر اليها القائمون بشأن المؤتمر وأكدوا لها جهد قواهم أن الامر لايمكن أن يصرف الا على مجرد السهو ، وبادروا الى العلم المصرى فرفعوه بين التحية والتصفيق ، ولما انتخب اعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية كان بينهن ، ولا فخر ، ممثلة نساء مصر هدى هانم شعراوى .

كل هذه الافكار كانت تساورنى فى طريقى الى قصر السيدة هدى هانم شعراوى ، الا اننى ، كما اسلفت اليك ، فى مسألة « النهضة النسوية » رجعى . واذا كنت اخاف شيئا من وفادتى تلك ، فهو أن تغير السيدة هدى هانم رأيى فى المرأة ، والمرأة المصرية على وجه الخصوص !

وأنت اذا جددت فى التفكير انتهيت الى أن أكثر مايستريح اليه الناس وما يختمون عليه قلوبهم فى معاقد آرائهم مدين لهذا النوع من الانانية فى الانسان ، وان المرء ليؤمن بالرأى حتى ليقاتل فى سبيله ويبذل مهجته من دونه ، وما كان هذا الرأى نتيجة منطق سليم ولا وليد تفكير صحيح ، بل لقد يكون أثرا من آثار التقليد أو طول الاعتياد أو حكم الظرف الخاص أو غير ذلك من مختلف الاسباب ، وان الزمن ليعقد بين المرء ورأيه الفاومودة ،

وتلك العلة فى نفورك من كل من يكشف لك عن مواقع الخطأ فى رأيك ويحاول أن يزعجك عنه الى ماربما كان الصواب . ولقد لمس المتنبى هذا المعنى فى قوله :

خلقت الوفا لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

* * *

وبلغت قصر السيدة الفخم ، وقادنى الخادم الى غرفة صنعت على (الطراز العربى) وقد افتنت اليد الصناع فى سقفها وجدرانها ومحاريبها وأثاثها وثرياتها وصورها وتهاويلها ، حتى خيل الى أننى انما أعيش فى القرن الرابع عشر لا العشرين . وجاء شاب من قرابة السيدة فدعانى وسار بى ، فخضنا بهوا عظيما هائلا يتحير الطرف فى بديع أثاثه ورائعة تحفه ، حتى أفضى بى الى غرفة مبسوطة الجنبات أثثت بفراش من طراز لويس السادس عشر ، وزينت جوانبها بغوالى الطرف ، كما زينت جدرها بأبدع ماجالت به أيدى المصورين . والواقع أن عينك لاتقع ، أنى دارت ، الا على مظهر من مظاهر الغنى ، الا أن ذهنك سرعان مايستغرقه شعورك بما فى ذلك النظام من دقة ذوق وروعة جمال . وهناك استقبلتنى السيدة النبيلة مرحبة وأومأت الى كرسى كبير « فوتيل » فجلست وجلست .

ولست أعالج من وصف سيدة ماأعالج من وصف الرجال فى هذه « المرآة » ، الا أننى لا أكتم القارىء ان هذه السيدة تحيط بها هالة من جلال تحسر النظر عن تصفح مافى معارف وجهها من قسامة وجمال ، وذلك البريق فى عينيها قل أن يقع على محدثها ، بل أنها لتشرد به فى ناحية اخرى فى فتور طرف ، على أنك لو استطعت أن « تنشل » منه فى غفلة منها نظرة واحدة أقنعتك تمام الاقناع بأن نظرها انما يتجاوز المحيط الذى أنتما فيه ببعيد . والواقع انها سيدة مفكرة ، والظاهر انها لاتنقطع عن تفكير عميق ، محتشمة الثوب ، محتشمة المجلس ، محتشمة القول ، محتشمة الابتسام .



وهمها فى العلا والمجد ناشــئة   وهم اترابها فى اللهو واللعب

وانتهى دور التحية ولم يبق لى بد من الكلام ، فقلت لها : ياستى، انما جئت لاسألك فى بعض ماتعانين من الاعمال ، فأجابتنى فى دهشة قد تنطوى على شىء من الانكار :

ـ لقد اخبرونى ياسيدى أنك آت لتسألنى فى مسألة خيرية !

ـ وهل ثم خير أبلغ وأجمع مما تعالجين ياسيدتى من وجوه الاعمال ؟

ـ تفضل فسل عماشئت

ـ قبل كل شىء لاأكتمك أننى رجل لاأقول بالسفور ولا أذهب مذهب السفوريين ، بل انى اعترف بأكثر من هذا ! اعترف بأننى فى مسألة « النهضة النسوية » مازلت رجعيا .

ـ رجعى ! ولماذا ؟ وما حجتك على هذا الخلاف لجماعة السفوريين ؟

ـ لست اتكلف لهذا حجة ، بل لعله رأى طبعتنى عليه البيئة بحكم نشأتى فى بيت محافظ

وهنا ابتسمت السيدة النبيلة ودارت ببصرها دورة سريعة وقالت فى بطء يتداخله شىء من العجب : واين نشأت انا ؟! ... وكأنها بهذه الكلمة الصغيرة تقول لى بأبلغ البيان : وهل نسيت اننى نشأت فى أكبر بيت فى الصعيد له كل تقاليده المأثورة، وعاداته القاسية الموروثة ؟ فأجبتها من فورى : وهذا ياسيدتى مما يزيد فى العجب !

ـ ليس الامر بدعا كما تظن، فان امة تريد ان تحيا وان تأخذ مكانها تحت الشمس انما تعبث بعقلها وكرامة تفكيرها اذا ظنت انها بالغة من ذلك ونصفها أشل! وكيف يرقى الرجال اذا لم يرق النساء ؟ وكيف ينتظم حال بيت تديره امرأة جاهلة لارأى لها فى الحياة ولا كرامة ولا خطر ؟ وكيف تريد للامة رجالا صالحين اكفاء للحياة المجيدة القوية اذا كان يتولاهم فى بدء نشأتهم ويطبع تفكيرهم أمهات جاهلات وضيعات التفكير ؟

ـ يلاحظ ياسيدتى أنه فى هذا الوقت الذى قويت فيه الدعوة الى السفور خرجت كثيرات من السيدات عن آفاقهن سواء فى

ملبسهن وفى غير الملبس من مطالب الحياة ! . وترى هل هناك صلة بين الامرين ؟

— ان دعوة السفور ماكانت يوما لتنطوى على هذا التبرج وهذا السلوك الذى تنكره وننكره كلنا معك ، فاذا ظن ظان أن من السفور ماتفعل بعض سيداتنا -مع كثير من الاسف ، من الابتذال فى مجالس الرجال والرقص ونحوه فهو فى أشد الضلال . واذا كان بعض السيدات قد تطرفن فى سلوكهن فما كان ذلك الا نتيجة « التطور » الاجتماعى ، ونحن اذا دعونا الى السفور وعملنا بجهدنا على تحقيقه فانما نفعل ذلك لنكبح جماح هذا « التطور » ونسير بالمرأة الشرقية فى الطريق النافع المأمون .

— وانك ياسيدتى لتجاهدين كثيرا فى أعمال البر ، فهل لك أن تصورى لى شعورك كلما أدركت من عملك نجاحا ؟

— اننى اذا كان قدر لى فى مساعى نجاح كما تقول فان شعورى مشغول عنه بمعالجة ما لم يتهيأ بعد له النجاح . ثم قالت فى تواضع عظيم : ان خطانا مازالت بطاء ، وخطى الايام سراع !

— لعلك ياسيدتى لاتزنين تمام الوزن أثر المجهود العظيم الذى بذلته على الايام لان أقل الناس ادراكا لنمو الطفل هما أبواه .

— على كل حال فانه ما زال بيننا وبين الغاية التى نطلبها بون بعيد ، فاذا لم ندركها نحن رجونا أن يدركها من بعدنا من الاجيال .

* * *

وهنا استأذنتها داعيا لها بالصحة وطول العمر ، وانصرفت لاأدرى أبقيت على رأيى « الرجعى » فى النساء أم لا ؟ الا أننى رأيت لسانى يردد قول المتنبى :

ولو كان النساء كمن رأينا　　　لفضلت النساء على الرجال

اسماعيل صدقي باشا

ما رأيت رجلا افترقت فيه أهواء الناس كما افترقت في اسماعيل باشا صدقي : فلقد أحبه قوم أشد الحب ، وابغضه قوم أشد البغض ، وبقي فيه آخرون متحيري المذاهب مترجرجي الآراء . وليس يشغل الناس بكل هذا الا عظيم .

ولقد رزقه الله قصدا في كل ضواحي خلقه ، فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالبدين ولا بالهزيل ، معتدل القامة ، متناسب الاعضاء ، له وجه لطيف مستدير ، وفم حلو تترقرق عليه ابتسامة حلوة ، يحدثك في هوادة وظرف حتى لترى فيه خفر الكاعب وارتياح الغلام ، ولا تجده ، مهما لج بكما الحديث وتعلق بما يحفز ويثير ، الا وادع النفس مطمئن القول عذب الصوت ، يقاولك في الجلي كما يقاولك في أتفه الشئون ، حتى لتحسبن هذا الهيكل الذي يجتمع عليه نظرك لايجن الا طاقات من الزهر ، أو قطعا من نسيم السحر ، فلا غضب ولا مراح ولا ضغن ولا وجد ولا غريزة من تلك الغرائز التي تتفجر في صدور جميع الاحياء ! ولكن ارفع بصرك الى عينيه تجد هناك كل مايصول به اللسان ، وتتنزى به في الحادثات جوارح الانسان ولصدقي باشا عينان حديدتان ، وهما مستديرتان في غير سعة ، وقد ركز الله فيهما مظاهر كل ما في الرجل من ألوان العواطف ، فاذا استرسلت نفسك منه الى مثل صفاء الغدير ، فاحذر فلعلك بين براثن ليث خادر ! .

ولصدقى باشا صلعة شديدة الوضوح تنحدر الى مؤخر نافوخه حتى لتعرفنه بها موليا كما تعرفه مقبلا .

ويهب الله له دقة فى الحس وصفاء فى الذهن لم يهبهما لكثير من الناس . واليهما يرجع الفضل اعظمه فى كل ماأدرك من براعة ونبوغ . ولصدقى باشا كل مواهب الرجل الفنى حقا ، وانه لم يعالج من يوم نشأته الى هذه الغاية ، موضوعا فى هذا الباب الا برع فيه وأوفى على نهاية الاحسان ، وبهذه المواهب تهيأ لاسماعيل صدقى ان يكون اكبر رجل مالى فى البلاد ، لا أريد مؤلفا ولا محاضرا ، وانما أريد رجل عمل انقذ بمهارته ميزانية الدولة مرة وكان قد اشرف بها سلفه على الدمار . وما يزال يعالج بتلك العبقرية الفذة ميزانية الدولة وزيرا وعضوا فى مجلس النواب .

وقد تطلعت الآمال من بضع عشرة سنة الى وضع مشروع جامع لترقية شأن البلاد من الوجهتين : المالية والاقتصادية . وعهد بهذا الى (لجنة) من اهل الخطر فى هذه الامور مصريين واجانب ، وتولى صدقى باشا رياستها . فبحث فى كل مرافق البلاد ، لم يدع دقيقة ولا جليلة فى ذاك الا حررها ودل على مواضع النقص فيها ، وكيف تطلب اسباب الكمال لها ، وخرج بمشروع عظيم لو أن مصر وفقت الى الاخذ به والسير بمرافقها على ما رسم فيه لكان لثروتها المسكينة اليوم شأن آخر !

وهو من أعلى المثل للكفايات الواسعة المشبوبة التى لاتتحرج بمطلب ولا تتخذل عن الغاية ، وانى شارك فى عمل كان المجلى وكان أول نظره جماع الرأى فى النهاية . ومما يؤثر له ان المجلس الاقتصادى - ولا تنس انه من بعض آثاره فى وزارة المالية - انتخبه رئيسا للجنة الفرعية التى عهد اليها وضع النظام الجمركى ، فأعد برنامجا بديعا اتخذته اللجنة دستورا لها وما زالت تترسم آثاره الى الآن .

ومما يحصى له ان كانت تحصى مفاخر آثاره ، تلك المحاضرة

الرائعة التى القاها فى العام الماضي على محامى المحكمة المختلطة فى موضوع الامتيازات الاجنبية وعلاقتها بالضرائب . وما كان اعظم انتصاره اذ يضرب تلك الامتيازات فى أمنع قلاعها ، ثم يتدلى عن المنبر بين تهليل صفوة « الاجانب » وهتافهم الطويل !

* * *

وأحرز صدقى باشا اجازة الحقوق من مدرسة الحقوق المصرية وسنه لم تتشرف بعد على الثامنة عشرة ، وخرج من مراكز النيابة فلم يظهر له فيها كبير خطر ، وأى خطر كبير يمكن ان يتهيأ لعضو نيابة محدود السعى محدود العمل ؟ ولكنه ما كاد يولى سكرتيرية المجلس البلدى فى الاسكندرية حتى ظهر نبوغه وظهرت معه تلك الجراة النادرة . ويقبض رجل مصرى لاول مرة على ناصية المجلس البلدى فيضبط ادارته ويعمل على ان يطهره من ادرانه تطهيرا .

ثم جيء به سكرتيرا عاما لوزارة الداخليه فوكيلا لها ، فكان له شأن أكبر من شأن « موظف » مصرى فى ذلك الزمان . وأنى صار صدقى باشا فى مناصبه صارت معه الدقه والفطنه الى خفايا الامور والاضطلاع من مهام الحكم بكل عظيم .

وتولى الوزارة فلم يطل به الحظ فيها فاعتزلها ولبث فى داره بضع سنين ، الى أن ألف الوفد فى أعقاب سنة ١٩١٨ ليتحدث على قضية مصر فانتظم فيه صدقى باشا ، وكان رابع أربعه من رجالاته امتدت اليهم يد السلطة العسكرية فنفتهم عن البلاد الى جزيرة مالطة ، حتى اذا أطلق بعد تلك الاحداث الجلى ، انطلقوا من فورهم الى باريس حيث وافاهم سائر أعضاء الوفد ، وهناك جعلوا يرفعون صوت مصر ويطرقون بطلبتها كل باب ، ويسعون الى استقلالها ماوجدوا الى السعى سبيلا . واذا كانوا رفعوا صوت مصر فلقد رفعوا كذلك رأس مصر . واذا كانوا دونوا فى اثبات حقها صحائف خالدة على التاريخ ، فان اسم اسماعيل صدقى سيظل فى أجل هذه الصحائف خالدا على التاريخ .

وفشت مع الاسف فاشـــية انقبض على أثرها صدقى باشا عن العمل ، وصدر أدراجه الى مصر وبقى فى عزلته حتى كانت الوزارة العدلية فى أوائل سـنه ١٩٢١ فتقلد فيها وزارة المالية ، وشخص فى الوفد الرسمى الى لنـدن فى تلك السنة . واذا كان قد شارك فى بحث المسألة السياسيه فقد انفرد ببحث المسائل الاقتصادية التى تعلقت بها المفاوضات ، فكان فيما حرره منها حق لبق وحق خبير .

وتعـلم أن ثروت باشـا قد استخرج فى سنة ١٩٢٢ تصريح ٢٨ فبـراير واعـلان مصر دولة مستقله ذات سـيادة ، فلا تنس أن صاحبه صدقى باشا كان وزره فى هذا السعى وعونه بما جلى من التفاصيل . وما أبدع صـــدقى يكمل ثروت اذا عرضت عظيمات الامور ، هذا لخطب السياســـة الضخم ، وذاك لما يتكىء عليه حل المعضلات من دقائق الموضوعات .

فكيف بهذين مع عدلى بعينـه العالية ونظره السياسى القدير ؟ وكيف بثلاثتهم مع الزعيم الجليل سعد باشا وما اختصه الله به من شدة نفس وقوة حجة وصـلابة عود ؟

ولقد حق للامم الناهضة بهذا أن تغبط مصر ، وان مصر ببركة هذا الائتلاف المقدس لبالغـــة غرضها الاسمى ان شاء الله .

وبعد فلقد لبثت مصر بضـع سنين وعيشها السياسى قائم على تنابذ قادتها وتناحر أحزابها كل يعمل للقضاء على غيره حتى اذا خلا له وجه الامر تولى حل قضـــية البلاد على ما قدره هو لتحقيـــق أمانى البلاد . ويستحر القتـــال ويرمى كل عدوه بما ملكت يده من أسباب الهلاك . ويأبى حارس الـكنانة الا أن يبصر الصفوة من القادة وأعيان أهل الرأى بأنه اذا كان هناك من يستفيد بهـــذه السياسة الدامية فليست هى مصر على أى حال !

وما ان أهاب بالقـــوم ذلك الداعى النصيح حتى ألقى السلاح ونضيت الدروع ، وخشعت القلوب وفاضت العيون بالدموع ، ومشى الاخ الى أخيه يستعتبه فيعتب ، وهرع الولد الى أبيـه يستعطفه

فيعطف ويحدب وتبزل الاضغان وتسل الاحقاد ، فيجتمع الاحباب من كل ناد ، فلا ترى الا عطفا يملأ الافئدة ورحمه تسيل بها الاكباد

شواجر أرماح تقصف بينها شواجر أرحام ملوم قطيعها
اذا احتربت يومافافاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

وكذلك أصبحت البلاد بنعمة الله صفا واحدا يرمى فى غرض واحد بعد أن كانت صفوفا يرمى بعضها بعضا ، وصدقى باشا رجل شديد فى رأيه يعمل له بكل ما أوتى من قوة ، وهو من أكبر العاملين على ترك سياسة الفرقة الى سياسة الوئام ، وصل الله فى عمرها الى غاية الزمان ، فكان شديدا فى الاولى كما كان شديدا فى الثانية ، ومن ينكر عليه هذا فهو لا يدين بمنافع البلاد حيث كانت ، ولكن يدين بعبادة الاشخاص حيث تكون !

وهل كان هذا فى شرع السياسة بدعا ؟ وهده دول الغرب التى نأخذ عنها أساليب الحكم ونتروى وجوه التصرف فى السياسة ، لقد تتعادى أحزابها وتتفانى ، وينضح بعضها بعضا بالمكروه ، حتى اذا حدثت الاحداث تصافحت الايدى ، واتحدت الكلمة وتلاحمت الصفوف ، ودخل رجال من بعضها فى وزارة ينمى رئيسها لآخرين ، والامثلة على هذا أوفر من أن يتناولها البيان .

ولقد كان سعد وعدلى وثروت وصدقى من فجر النهضة حزبا واحدا ، يدينون برأى واحد ، ويسعون لغرض واحد ، فهل يعد عليهم اليوم ان تنحسر الفتنة بينهم وان يعودوا كما بدءوا قلبا واحدا ، وقد جدت الاحداث ، لانقاذ حياة البلاد ؟ ! ! !

* * *

ولعل صدقى باشا يمتاز عن اصحابه بشدة العصبية لاهله ومعشره ، فلا يفتأ يتفقدهم ويتوافى لهم ويصلهم بكل ما دخل فى ذرعه ، ولقد يفرط فى هذا الى الحد الذى يبعث ضعاف الاحلام ، على انكار ما اوصت به المكارم من صلة الارحام !

وصدقى باشا ، فى بابه ، عدة قوية للبلاد ، وهو لا يكل من

العمل ، على فرط ذكائه ، ولا يمل . ومما تحدث بهعنه اعرف الناس به انه حين كان وزيرا للمالية لم يكن يرهق كبار موظفيها بطول المراجعة والاستخبار ، بل كان يتكىء على فطنته واختباره وحدهما فى مذاكرة ما يدفعونه اليه من الاوراق . ومما تحدثوا به عنه فى هذا الباب ايضا انه كان فى غاية اليوم تحمل الى داره خرائط ثلاث أو اربع تجن كل ما يجرى من الاعمال فى وزارة المالية ، فيكب على دراستها من الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى فلا تدخل الساعة التاسعة الا وقد قتلها بحثا ومراجعة واستوى له فى كل منها الرأى النصيح

وان خطئا عظيما الا يستخدم على الدوام للنفع العام ، فاذا أخذه شانئوه بهنة فما كان هذا ليتنقص اقدار الرجال ، الا اذا تنقصت الكهوف أقدار الجبال ، ولعلهم فى هذا ايضا كانوا مسرفين!

من صدقى باشا الى محرر المرآة

وقد تفضل حضرة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا فبعث الى محرر «المرآة» بالكتاب الاتى :

عزيزى الاستاذ الفاضل .

أشكر فضيلتكم كثيرا لمرآتكم الناصعة وان كنت لا اخفى عنكم اننى لم اتعرف صورتى تماما خلالها ، بل أخشى ان تكونوا قد بالغتم فى تجميلها وتزيينها .

وارجو قبول تحياتى . المخلص

١٧ يناير سنة ١٩٢٧ **اسماعيل صدقى**

(محرر المرآة) وليس لى يامولاى ما أقوله فى هذا المقام غير قول الشاعر :

فلو (صورت) نفسك لم (أزدها)
على ما فيك من شرف الطباع



من ذخائر الامم

على الشمسى بك

لم يكن على الشمسى من يوم نشأته منكور المحل ، واول عهد الجمهور به يوم كان فى سويسرا يطلب العلوم العالية ، فكان طالبا مجدا متفوقا ، وكان الى جانب ذلك حركة وطنية قوية تدعو لمصر المضطهدة وتطلب لها الحرية فى صميم بلاد الحرية . نعم كان الشمسى فى اوربا اقوى صدى لصوت الحزب الوطنى فى مصر . واتم تحصيل علومه ونال عليا الشهادات من اكبر جامعات سويسرا ، وعاد الى بلاده ، فظن الناس ان « وظيفة » تمهد فى الحكومة لهذا القادم النجاح الجديد ، فاذا به يعدل الى دار الحزب الوطنى وينتظم من فوره عضوا فى مجلس ادارته . وهكذا كان الشمسى درسا بليغا فى التضحية خالصة لوجه الوطن ، ومن حيث علم من لم يكن يعلم ان التلميذ يتعلم فى مدارس مصر حتى اذا تاقت نفسه الى طلب العلم العالى هاجر الى بلاد الغرب فلبث سنين طوالا بعيدا عن اهله واحب الناس الى قلبه ، وانفق ما شاء الله ان ينفق من مال وعمر ، وادركه ما شاء طلب العلم من كد ذهن وارهاق عصب ، حتى اذا برع وحاز اسمى الالقاب العلمية ، عاد الى بلاده لا ليطلب بهذا كله عند الحكومة مرتزقا ، ولكن ليطلب به « وظيفة » جندى مجاهد فى سبيل الوطن !

وكان على الشمسى فى الحزب الوطنى قوة كبيرة . لا فى جهاره الصوت ، ولا فى كثرة الترائى للجماهير ، ولا فى سبب من اسباب الظهور ، ولكن فى صحة الراى وبعد النظر وسلامة التدبير . حتى اذا بعثته ضرورة الحال للخطابة اسمع الناس كلام وطنى

شديد الوطنية ، فى عبارات سياسى محصه العلم ومرسته تجارب الايام

وهنا يحلو لى ان اقرر ملاحظة صغيره : تلك انه لم يكد يخرج رجل فينا الى ميدان السياسة الا جاز اليه بالحزب الوطنى والتشيع بادىء الراى لمبادئه . والوجه فى هذا ، على تقديرى ، ان الحزب الوطنى حزب الشباب حقا ، وان مبادئه مبادىء الشباب حقا .

والشباب كله حد (١) وقوة : دم فائر ، وطبع ثائر ، وخيال طائر ، وامل لا يتحسب للصعاب ، ولا ينخذل عن الاستشراف للغاية مهما عز الطلاب (٢) :

اذا هم القى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا !

وكلما علت السن عدا العقل على الخيال ، وقصت التجاريب من حوافى الامال ، وطال النظر وكثر الحساب ، وتحير الراى فيما على طريق الغاية من عواثير وما فيها من عقاب (٣) — الى ما تثلم السن من القوة ، وتقلم من اظفار الفتوه ، وتعجز من تلحقه عن التطلع الى الطفرة ، وتطامن من جماح امله طلبا للسلامة من العثرة . فاحكم انت بعد هذا : اكانت فترة الشيوخ عن صحة تدبير وصدق حساب ، ام عن تراخ فى المنة وعجز عن الوثاب ؟ !

وجاء الانتخاب « للجمعية التشريعية » فظفر على بك الشمسى بالعضوية فيها عن مديرية الشرقية ، ولا ادرى اكان ظفره بذاك ، على شدة التنافس وقسوه الخصومة السياسية ، لادراك الناخبين صدق وطنيته وماله من المواهب السامية ، ام لانهم انما اخرجوه للنيابة عنهم لحسبه واصالة عرقه وموضع بيته فى تلك البلاد ؟

على انه ما كاد يتبوا كرسيه فى « الجمعية التشريعية » وكان

---

(١) الحد : الحدة . (٢) الطلاب : الطلب . (٣) العقاب هنا : جمع عقبة .



بصير بأعقاب الأمور كأنما   تخاطبه من كل أمر عواقبه

اصغر أعضائها سنا ، حتى انفسح له بين رجالاتها فى مكان الراى والحكمة مكان خطير !

ودارت رحى الحرب العظمى ،وظهر للسلطة القوية ان على الشمسى (من غير المرغوب فيهم) فكفوه عن العودة الى بلاده ، ويلبث فى ديار الغرب منفيا طوال زمن الحرب ، فاغتنم هو هذا النفى ليدعو فيه لمصر وليستزيد من فضل الوقت لطلب العلم فى أعظم جامعات الغرب

واراد الله واغمد السيف ،وهتف هاتف السلام ، واذن (للمغضوب عليهم) فى العودة الى بلادهم ، فعاد على الشمسى لا ليستريح من ذلك النصب الطويل ، ولكن ليستقبل فى قضية بلاده ذلك الجهاد الطويل

وشخص الوفد المصرى الى أوربا فسرعان ما اتصل به على الشمسى ، وظل يمده بجهوده ويصله بصادق الدعوة فى مواطن الدعوة ، ثم انتظم فيه عضوا .

وبعد ، فأنت أخبر بمساعيه للوفد المصرى وبخاصة فى بلاد الغرب ، مما أجدى عليه بقوة ذكائه وعظيم اختباره ووثيق صلاته برجال السياسة هناك أعظم الجدوى .

* * *

ولقد حدثتك فى أول هذا المقال ان على الشمسى لم يكن من يوم نشأته منكور المحل ، وانما اردت بهذا علم الناس بنشأته فى المجد والحسب ، وثقتهم بما له من شدة فطنة وواسع علم ، وايمانهم بما أدرك من اختبار وتمرين فى السياسة وصدق جهاد فى الوطن ، أما انه يصلح لان يكون وزيرا ، وفى وزارة المعارف يضطلع بتلك الادارة الواسعة ويعالج اضخم مشكلة تعترض حياة البلاد ، وهى مشكلة التعليم فذلك ما كان محل نظر كبير ، ان لم اقل انه كان موضع خوف كبير ! حتى لقد سلم كثير من الناس الامر لله فى هذا وللزعماء تسليما !وحتى قال بعض الصادقين المخلصين حين رأوا اجماع الزعماء على تقليد على بك الشمسى وزارة المعارف : « اللهم ايمانا كايمان العجائز » : ! !

وأول ما ظن به انه سينبعث بهوى السياسة وحدها فى عمله الجديد ، فلا يرى اثرا الا عفاه ، ولابناء الا هدمه ، ولاعملا لاسلافه الا نقضه ، ولكن على الشمسى لم يكن عند رأى أحد من أولئك المتعجلين جميعا ! فقد ارتفع به علمه عن ان يغير فى نظم التعليم لمجرد الشهوة فى التغيير ، وارتفعت به وطنيته عن أن يغضب العلم ليرضى السياسة ، وحين فارت فورة بعض اعضاء مجلس النواب على ما صنع سلفه أبت على على الشمسى كرامته وكرامة العلم عليه أن يشايع بظهر الغيب ، بل لقد صارح القوم بانه لايستطيع ان يحكم على عمل سلفه الا بعد ان يراجعه ويصيب فيه مكان الرأى ، فما كان منه خيرا اثبته وأقره ، وما كان شرا رده الى الخير . وأسرع لساعته فدعا بالافذاذ من اقطاب العلماء وأهل البصر فى هذا الموضوع ، وألف منهم (لجنة) برياسته لمراجعة نظم التعليم بجميع درجاته ، ووضع الخطة الحكيمة التى تحقق فى العلم أمانى البلاد ، وها هى تى تعمل جاهدة فى هذه السبيل فلا تنتقل من خطوة الى خطوة الا بعد البحث وتقليب النظر وطول المراجعة ، حتى لا ترسل خطوتها الا الى الثابت المطمئن ، مستهدية بالحكمة والاختبار وحاجة البلاد وطبيعة أهلها وما انتهى اليه رأى علماء التربية فى نظم التعليم . وانا لنرجو الله تعالى ان يوفق هذه (اللجنة) فى مهمتها حتى تبلغ غايتها ، وبهذا ندعو لعلى باشا الشمسى بتسجيل أبلغ فخر اثبته التاريخ لوزير المعارف فى مصر .



وعلى باشا الشمسى رجل جم الادب وافر التهذيب ، يروى عنه انه لا يلقى أصغر عماله الا باللطف والهشاشة ، على انه مع هذا شديد الحزم ، لا تأخذه هوادة فى موطن الحق . يغار على عمله غيرته على أوثق اسبابه ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من أعمال وزارته الا سلط عليها ذكاءه وقلبها على كل نواحى الرأى ، فان اجتمع فيها وجه المصلحة الخالصة أمضاها وأجازها ، والا فلأم هوى النفس وهوى « الرجاء » الثكل .

وليت حكامنا جميعا يصلبون على تقبل الشفاعات فى غير مواطن الحق ، فان الافراط فى الرجاء أصبح من أعضل ادوائنا الاجتماعية
واذا كان الحاكم عدلا صادق الولاية على عمله فليس هناك معنى (للرجاء) عنده الا أن يراد به العدول الى الظلم وتعمد الخلاف للقانون ! أرأيت مثل هذا اسفافا فى الطباع وفسولة فى الاخلاق ؟ ! ... والعجب أنه مع وضوح هذا كله لجماعة المضطربين بفنون الشفاعات عند الحكام فان اكثرهم ليطلقون السنتهم بمقالة السوء فيمن يعتصم بالحق ولا ينحرف ، طوعا لشفاعاتهم ، عن حكم القانون . وبهذا اصبح لا يستحق الحمد ، فى شرع هؤلاء الا ظالم متمرد على النظام ! .

وقال لى صديق من القضاة يوما وهو جزع ثائر النفس لا يغيظنى يا فلان قدر أن يجيئنى الشفيع فى أحدى القضايا فلا يفتح عليه الاجرام الا بأن يرجونى « أن اقضى فيها بالعدل » ! ومعنى هذا اننى لا أحكم فى أقضيه سائر الناس الا بالظلم ! ولو سألنى أن أقضى فى شأن صاحبه بالظلم لكان ذلك ارفق بى وادل على اننى اذا أرسلت على طبعى لما عدوت مكان الحق !

أقول ، لو صلب الحكام جميعا على تقبل الرجاء لما استكفوا الاذى فقط بل لطبعوا ، على الايام ، كثرة الناس على حب الحق واجلال القانون ، وما أحوج بلادنا فى نهضتها الكريمة الى ان يتغلغل فى القلوب حب الحق واجلال القانون .

ونعود الى على باشا الشمسى فنقول انه اظهر فى هذه الفترة التى قبض فيها على زمام وزارة المعارف كل مواهب الوزير العظيم القوى الذهن ، النافذ الرأى ، الواثق بالنفس ، والذى لا يجعل كلمته فى أسباب الحكم رهنا بمنصبه ، بل يجعل منصبه رهنا بكلمته .

وليس لتعليم على الشمسى فضل كبير فى الحرص على كلمته ، بل ان أعظم الفضل فى ذلك لحكم الوراثة ، فقد قال أبوه أمين باشا الشمسى أغنى تجار القطن من قبل كلمة ، وكان له أن يتحلل منها فلم يفعل ، وخسر فيها مئات آلاف الجنيهات . وهكذا أذا كان

فى نبل الكلمة خسارة فى المنصب او المال ، فهى كل الربح يحصيه التاريخ لعظماء الرجال .

* * *

وعلى باشا الشمسى شاب متين الجسم مفتول العضل ، ادنى الى القصر منه الى الطول ، ابيض اللون ، ازرق العينين ، تسترعى نظرك منه تلك الجبهة الواضحة العريضة التى تمثل لك قاعدة مثلث ينتهى بأسفل ذقنه ؛ وما ان راقك منه ادبه وشدة وداعته فاطلعت منه على تلك الجبهة الهائلة الا احسست انه رجل خلق للكفاح والنضال .

وحدثتك انه مفتول العضل ، ذلك بانه (Sport) حقا فهو يجيد السباحة وركوب الخيل والملاعبة (بالشيش) ولا ينطوى عليه يوم الا فرض منه قسطا للالعاب الرياضية .

واذا كان فى المصريين قوم قد اسفوا أول الامر على تقليد على الشمسى وزارة المعارف فان هؤلاء اليوم أشد الناس أسفا على أن الوزارة قد حرمت هذه العبقرية من زمان طويل .

عزيز عزت باشا

مظلوم من الطبيعة ، ومظلوم من الحكومة ، ومظلوم من الناس ، ومظلوم من نفسه . شاع فيه المرض أو توهم المرض (أو ماتراه أعظما وجلودا ؟) فهو يخشى الطعام لئلا يدركه البشم ، ويخشى الشراب لئلا يلح عليه السقم ، ويخشى المشى خوف تعب القلب وخفقانه والتفت اتقاء وجع الجنب وضرباته والحديث فانه يرهف العصب ، والكتابة فانها مدعاة للكد والنصب . ولا بد له من ان يطعم ليعيش ، فاذا قربوا اليه الطعام دفع صحاف اللحم ابيضه واحمره ، لان اضراسه لاتقوى على قضمه ، ومعدته لاتضطلع بهضمه ، واذا جاءوه بالخضر صدف عن هذا ففيه حديد ، وهذا لكثرة مايحوى من (الاسيد) ، وهذا لانه وشيك التحجر ، وهذا لانه سريع التخمر ، وهذا لانه يستحيل فى الامعاء غازا ، وهذا لانه لايجد فى (الاثنى عشرى) مجازا ، ثم مد يده فى خوف ووهل (1) فتحيف من احدى الصحاف قطعة من (البطاطس) مسلوقة مدقوقة ، قد بالغوا فى عركها ، والحوا فى فركها ، ولم يعالجوها بدهن ولا مرق ، حتى اذا أساغها بعد طول مضغ وهرس ، وترديد على كل ثنية وكل ضرس مضى يطلب لهضمها من العقاقير كل ما اخرج اطباء الانجليز والالمان ، والفرنسيين والامريكان مما يدر عصير المعدة ، ويحرك الامعاء ، ويشد المصران ويقوى (الضفيرة الشمسية) ويمنع التخمر ، ويشتف الغازات

---

(1) الوهل : الضعف .



لايغرنك سهولة المرتقى اذا كـان المنحدر وعرا

ويحتاز (الحجاب الحاجز) فلا يضغط القلب ، ثم راح يشكو هؤلاء جميعا ! ! !

وعزيز باشا عزت كبير الرأس، له وجه شاحب طويل على جسم رفيع طويل ، لو وقف امامك ولم يتحرك لخلته عصى خيزرانة ركب عليها مقبض من العاج ! .

وقد نجم من بيت حسب وغنى ، وتعلم فى صدر شبابه فى مدارس مصر ، ثم شخص الى انجلترا فتلقى العلم فى مدارسها، ثم دخل فى جامعة (ولش) العسكرية حتى اذا طوى فيها سنين طالبا مجدا متفوقا خرج منها ضابطا فى الجيش البريطانى، ثم استقال وعاد الى مصر فانتظم فى خدمة الحكومه المصريه حتى قلد وكالة الخارجية الى ان كانت وزارة محمد باشا سعيد الاولى فلم ير ان يبقى فى وزارة الخارجية وكيلا فنزح بأهله الى لندن وأقام فيها كل هذه السنين

وهو رجل وافر الذكاء ، غزير العلم ، جم الادب ، صادق النبل، وبهذه السجايا استطاع ان يحرز فى بلاد الانجليز مكانا رفيعا .

ولما جاء دور اختيار السفراء قلدته حكومة جلالة الملك فؤاد الاول سفارة لندن ، وكان اختياره موفقا من ناحيه ما للرجل من سعة العلم وصدق النبل ووفرة الغنى والمنزله فى عظماء الانجليز ، الا أن الرجل ، مع الاسف ، كما أسلفت عليك مريض . ولعل المرض هو الذى شغله عن متابعة الحركة المصرية ومدارسه قضيتها وتفهم ظواهرها وخوافيها ، فلم يكن ذلك المعوان الذى يتكىء عليه رجال السياسة فى معالجه القضيه المصرية كلما جدت عظيمات الامور

وفى الحق أن عزت باشا فى خطبه البديعة الرائعة عن السودان انما كان رجلا وطنيا أكثر منه رجلا سياسيا ، فان مهمة السفير أن يخاطب الرجال الرسميين لا يتخطاهم الى خطاب الشعوب . ولعل ظرفنا الخاص هو الذى بعث حرارة عزت باشا وأطلعه فى الشعب الانجليزى بتلك الخطب السوابغ . وكثيرا ما يغتفر فى أمثال تلك الرحات القوميه تجاوز ما يدعونه بالتقاليد

ولقد اخذوا عزيز باشا عزت بطول اجازاته وتركه مثوى عمله

الاشهر الطوال الى سويسرا للتداوى وتارات الى مصر . والرجل لم يكن متجنيا ولا متبطرا ، فانه وأهله كليهما مريض ، وقد حدثتك ان الطبيعة ظلمته ، واى ظلم اشنع من ظلم المرض ، وحدثتك أن الحكومة ظلمته اذ قلدته بادى الرأى منصبا لا تضطلع صحته بأعبائه ، وانه ليقدم اليها الاستقالة بعد الاستقالة وهى تأبى الا أن تردها اليه وأن تمسكه فى مركزه رغم أنفه ، والناس له فى هذا كذلك ظالمون

ويجمل فى هذا الموضوع أن نذكر ان الرجل لم يدل يده الى تناول راتبه طول مدة اجازاته ، فهو يردها على خزانة الحكومة ردا

وأنت تعلم من مناقشات مجلسى البرلمان انه لم يدخل فى شأن «بيوت هوس» بيد ولا رجل ، بل لقد انكر هذه الصفقة أول الامر وقضاها زيورباشا آخره فى سر منه اذ هو فى سويسرا

وان من الغبن أن يقال ان عزيز باشا عزت «يشتغل» سفيرا لمصر فى لندن ، ولو سألتنى عن وظيفته الحقيقية لقلت لك ، انه «يشتغل عيان» نسأل الله أن يلقيه العافية

وبعد ، فاذا كان لنا سفير فى باريس وسفير فى روما وسفير فى الاستانة وحتى لنا سفير فى طهران ! أفلا يصح أن يكون لنا سفير أيضا فى لندن !؟ واذا كانت لنا صلات ببلاد فارس ، ولفارس فى أسواقنا سجاجيد « وشيلان كشمير » وسبح «كهرمان» فاننى أتخيل أن لانجلترا فى أسواقنا شيئا يدعى الفحم ، وآخر يدعى الحديد ، وثالثا يدعى الاقمشه على اختلاف أنواعها ، ورابعا وخامسا ، فاذا لم يكن بيننا وبين انجلترا مسائل سياسية تستدعى أن نبعث لها سفيرا ، فلا أقل من أن نبعثه لما بيننا وبينها من وسائل تجارية !

واذا لم يكن فى مقدور حكومتنا أن تقبل من عزت باشا ما يقدمه لها من الاستعفاء ، فان فى مقدورها ان تعجل له الشفاء !

شوقى

لو بعث الله النـــاس كلاماماعدا ان يكون شوقى نفســه قطعة شعرية جميلة نظمت فى الحب والرحمة . دقيق الجرم ، لطيف الحجم متناسق الاعضاء ، مستدير الوجه ، لاتزال عليه اثارة من ملاحة الصبا وان تكرشت بعض معارفه بقضاء مافوق الخمسين ، اذا اقبل عليك يحدثك مالت حدقتاه عنك الى ماعلى يمينك او شمالك او ظلتا تضطربان بينهما حتى لتحس انه يوجه على غيرك الحديث . ولقد ينقطع عن المجلس ، وهو فيه ، المرتين والثلاث ، فلا يسمع ولايرى ما يدور بين يديه ، فاذا كان على هذه الحال ورأيت رأسه يختلج وقد رشــق ظفر ابهامه بين ثنيتيه وراح يهمس بالتنـــاغيم يسلخها سلخا ، فاياك ان تقتحم عليه شأنه فانه انما يتلقى وحى القريض .

وهو خفيف الروح ، رفيـق النفس ، نبيل الخلق واللسان ، ترى فيه غبطة العصفور وترى فيه وداعة الحمام . وهو ، كما قلت لك ، قطعـــة مــن الحب والرحمـــــة ، واذا كان الحب ضعفا ، واذا كانت الرحمة ضعفا ، فلاشك فى ان شوقى اضعف الخلق اجمعين . ولم اره يوما غاضـبا ولاممهدا سبيلا للقسوة الى قلبه او يده او لسانه ، ذلـك ان الله طبعه على ان يتناول بما فيـــه من الحب كل مايجرى فى هــذا العالم من الخير ، وان يتناول بما فيه من الرحمة كل مايجرى فى هذه الدنيا من اذى وشر . ومن هنا تدرك كيف يشيع ذكر السيد المسيح فى شعر شوقى ، وكيف يتغزل بأفتن الغزل فى سجاياه العذاب !

مفرط فى حب نفسه ، شديد الولع بها ، مفرط فى حب بنيــه

شديد الولع بهم ، وانه بعد ذلك لشديد الرقة للناس جميعا ، اضعفه الحب وفل من عزمه فلا يستطيع ان يشهد مشهدا مؤلما، ولايستطيع ان يسمع قصة حزينة ، ولو قد عرض لسمعه او لبصره شيء من هذا لولى منه فرارا ولملىء منه رعبا . ولوع بنفسه هيوب من ان تعتريها الايام بمكروه ، وذلك الوجه فيما ترى من دوام رضاه وارتياحه فلا تلقاه يوما شاكيا ولا برما بالحياة مهما تكدر العيش وتنكر وجه الزمان فانه اذا اصابه الخير هش له وفرح به ، وان اصاب المكروه سببا من اسبابه اطار خياله كل مطير فراح يلتمس له فى الضير خيرا وفى المكروه نعمة ، ثم جاءك يحدثك بمنة الله عليه وعنايته به، فهو رجل يستخرج الرضا ويستكره سبب الغبطة على كل حال ! وانه ليسرف فى هذا اسرافا شديدا لقد يصل بك احيانا الى العجب من امير الشعراء !

* * *

وبعد فلكم عالجت القلم على ان يقول فى « شاعرية » شوقى فعصى ، ولكم بعثته بالبيان عنها فتعذر وابى ، وان ظلما ان تريدنى « السياسة الاسبوعية » على هذا وان تقضى به على اليوم قضاء لزاما !

وليت البيان يعار فأستعير بيان شوقى ليصف شعر شوقى، فليس يتعلق بهذا الا ذاك وانى لآخذ فى شعر هذا الرجل فمايزال يشففنى ويرفعنى حتى ارانى استحلت روحا محضا يطير بى عند السماك ، ويحلق محلق الاملاك ، فاذا أتيت عليه وعدت الى نفسى فاذا أنا مازلت جسدا رابضا على هذه الارض . واذا شعر شوقى مايزال نورا يترقرق فى تلك السماء !

صائد لايخطىء سهمه ، وانه ليصيب ارفع المعانى من اول رمية ، وانه ليترفع بك اليها او يتنزل بها اليك فتسيغها فى غير عسر ولا عناء ، وان كنت حق شاعر بانه انما جاءك بما يجاوز تفكيرك ويعلو على مدى تخييلك

ولقد ضرب فى كل قصد ، وجال فى كل غرض ، فبرع وبذ واتى بالطريف لاتدرك آثاره ، ولايلحق غباره . ومن عجب



وما الدهـر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

الزمان ان يخرج شوقى فى هذا الزمان ! ولا ادرى كيف فر هذا الشاعر من شاطىء دجلة الى شاطىء النيل ، ولا كيف تسلل من جيل ابى نواس الى هذا الجيل ؟ !

ولقد عارض الفحول من متقدمى الشعراء فى اجل قصيدهم فما قصر عن مداهم ولا انخذل عن اللحاق بهم ، بل لقد زاد عليهم من كل مافتق العصر فى فنون المعانى يرسلها فى الكلام الناصح فلا ينبو عنها الطبع العربى ولا يجد لها عليه نشوزا .

وشوقى هو شوقى من يومئذ ومن يوم تحرك بالشعر لسانه ، آية من آيات البيان يدوى بها السهل والجبل ، ولقد يكون التقدم فى السن ، والتبسط فى العلم ، وتجارب الايام ، وطول التمرين فى نظم الكلام ، قد بسطت فى اغراضه وبصرته بكثير من مضارب القلم ، الا أنها لم تزد ، وهيهات لها أن تزيد ، فى « شاعريته » كثيرا ولا قليلا ، ذلك أن هذه العبقريات انما تخلق مع المرء خلقا فلا تنال بكسب ولا تعليم ، فاذا كان لشىء من ذلك فضل ففى مجرد الصقل والتهذيب .

وليس بدعا فى سنة الله أن ينتضح طبع شوقى بكل هذا البيان العربى وهو فتى لا يتصل من أبناء العرب ، من أمه وأبيه بسبب ، ولا كان محصوله من لغتهم وأشعارهم ومحاضراتهم ومظاهر بلاغتهم بأوفر من محصول من نشأ فيهم من اهل البيان فوثب دونهم ورد بيان بنى العباس عليهم — والا فمن علم البدر كيف يتألق ، ومن علم الغدير كيف يترقرق ، ومن علم السحر الجفون ، ومن علم الغمامة كيف تسح بالعارض الهتون ، ومن علم الوردة كيف تتنفس بالارج ، ومن علم البلبل كيف يتغنى بالرمل والهزج ؟ ألا ذلك تقدير العزيز العليم !

وان طبع شوقى ليجود بالشعر يصيب به أعلى المعانى ما أحسبه يرتصد لها أو يعالجها بالمطاولة والتفكير ، ولقد تراجعه فى بعض شعره وما يطلب به فيروح يتفهمه معك بمجاهدة الفكر وطول الشد على العصب ، حتى اذا فر هذا الشعر واحتدت فيه الاذهان خرج

للناس فيه من وجوه المعاني مايحير العقول ويذهب بالالباب . فاذا رأيت بعد هذا شوقي ولم تستطع التوفيق بين مجلسه وحديثه في الاسباب الدائرة بين الناس ، وبين شعره الذي ينيف بك ، كلما قرأته ، على السماك ، فاعلم أن هناك موهبة أو ما يدعونه « عبقرية » ليس من الحتم أن تتسق دائما لسائر غرائز الانسان!

واذا رأيت أثر النعمة باديا على شعر شوقي فلا يتعاظمنك هذا ممن لاغاه اسماعيل طفلا ورباه توفيق يافعا ، وخرجه عباس رجلا ، وعاش عمره متقلب الاعطاف في الترف والنعيم .

وقيل يوما لابن الرومي : كيف يسبقك هذا الغلام (عبد الله بن المعتز) اذا وصف ، فلا تلحقه أنت ولا أضرابك من مشيخة الشعراء ؟ فقال : لانه اذا تكلم فانما يصف آنية بيته !

وشوقي لا يحفل كثيرا بنسج الكلام وتزوير اللفظ وتزويق الديباجة ، فان طبعه قد انصرف أكثره الى المعاني حتى انه ليحمل اللفظ أحيانا ما يثقله ويبهظه ويكد ذهن القارىء في التماسه وتبيينه ، بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتي أحيانا بالغريب الشامس من اللفظ لا تدرك معناه الا بعد مراجعة وطول استخبار !

على أنني في هذه المرآة بسبيل تحليل نفس شوقي لا تحليل شعره ، فمن كان لم يزل في حاجة الى التهدي لفاخر شعره وعيون قصائده ، وهي فوق أن يتناولها العدد ، فليطلب بعضها في قصيدة صديقه شاعر النيل التي أعدها للمحفل الكبير ، فليس أقدر على الدلالة على فاخر شعر شوقي من حافظ ابراهيم .

وقد يسف شوقي كما كان يسف بشار وابو نواس وابو تمام والبحتري والمتنبي والمعري ومن دخل في خللهم من جلة الشعراء ، ولا بد للطائر المحلق أن يستريح هنيهة بالاسفاف ، وانك لو وازنت بينهم في نصاحة شعرهم وحبك قريضهم وارتفاع معانيهم ، وفي اسفافهم ذاك وتزايل ألفاظهم وفسولة معانيهم لخلتهم انما يعتمدون هذا اعتمادا استجماما بالعبث أو تجنيا على ما أمكنهم الله من نواصي البيان!

وقلت لك انني لست بسبيل تحليل شعر شوقي حتى أ... على ما تقدم به القول مختلف الامثال .

وشوقى فنان كل الفنـــان ، يكلف بفنـــه ويغرم بآثاره غراما شديدا ، وليس يؤذيه شىء كمايؤذيه أن تتره حقه وتتحيف من قدر صنعته

ولقـــد قلت لك انه ضرب بالشعر فى كل قصـــد ، وجال به فى كل غرض فبذ وبرع -أستغفر الله الا الهجاء فماأحصى عليـــه فيه بيت واحد ، اللهم الاأن يتنـــدر ويلاعب بالشـــعر لا يبلغ به الاقـــذاع ولا يتردى به الى داعر الـــكلام ، ولا ادرى اكان ذلك ترفعا من نبل النفس وكرم النشـــأة ، والنزاهـــة عن التدسس الى مـــكاره الناس ؟ امانه يرجع ايضا الى تلك الطبيعة الغريرة والنفس الحلوة ، فهيهات للعصفور ان يكون بازيا ، وللحمل الوأدع ان يستحيل ذئبا عاديا !

وللكتاب شعر تعرفه بجفافه وجريانه فى مثل اقيسة المنطق ، وللشعراء نثر تعرفه بتزايل لفظه وانقطاع جمله وعـــدم استرسال معانيه . اذا عرفت هذه القاعدة تهيأ لك ان تعرف كيف يكون نثر امير الشعراء ! . على انك واجد لنثر شـــوقى حـــلاوة ، برغم ما يقيده من اسجاع الكهان ، ولكنها حلاوة شعر لا حلاوة كلام مرسل ، وكأنى بـــه اذا اعتزم الـــكتابة فى بعض الاغراض نظمها اولا فى شعر مقفى موزون ، ثم كسره تكسيرا وبذره على القرطاس بذرا .

ولسان شوقى لا يفى بمطالب ادبه ولا خياله ، وان فيه فـــوق هذا لخجـــلا يمسكه عن الكلام احيـــانا فى مـــواطن الـــكلام ، وقـــل ان تـــراه يتبســـط فى حـــديث الا اذا خلا الى نفر من صفوة خلانه ، عـــلى انك اذا شهدت مجلســـه ولم يسر اليك احد بأنـــه شوقى لما سهل عليك ان تدرك ان هذا شـــوقى الذى ملأ طباق الارض بيانا !

* * *

وليس جـــديدا ان انبئك بأن العبقرية كثيرا ما تضخم فى المرء عـــلى حســـاب ما فيـــه من الغرائز ، وكـــأنى بها تملك عنها قدرا من غـــذائها حتـــى ما تدع لبعضها قـــواما . وتـــلك العلة ، لا شك ، فيما تراه وتسمعه من شذوذ جميع العبقريين فى العالم . فاذا كنت منكرا على شوقى شيئا من الشذوذ فانك منكر ، من حيث لا تريد ولا تجرؤ ، تلك العبقرية الفحلة . وحسبه ان اصبح بهـــا ملء الارض ، وحسبه ان اضحى بها حديثا للتاريخ طويلا .

محمد محمود بك

تاريخ كبير فى سن صغيره ، وشأن جليل ، فى جسم ضئيل . ولعل محمد باشا محمود لم يذرف (١) بعد على الخامسة والاربعين ، ولكنك حين تقلب الذهن فيه ينسرح منه الى مدى عريض . وحسبك ان ترى ارنبة انفه وهو يشدها اذ يتحدث اليك او ترفعها له الطبيعة ، لتدرك انه رجل لا يريد الا ان يكون عظيما ، او على الصحيح ، انه لم يخلق الا عظيم . وكذلك كان محمد محمود من يوم اخرجه ابوه للتعليم فى مدارس الحكومة ، فكان فى السنة الاولى اول لداته جميعا ، فلما تحول الى الثانية كان فوق ان يكون اول تلاميذها ، فوثب به الناظر الى السنة الرابعة طفرة . وجاء عاهل وزارة المعارف « دنلوب » ليطالع مدرسة اسيوط ويتشرف على سير التعليم فيها ، فلما انتهى الى تلاميذ السنة الرابعة راى غلاما دقيقا لا تتصل سنه بأهل تلك السنة ، فبعثه من مجلسه وجعل يسأله وجعل محمد يحسن الجواب فى غير تتعتع ولا ورع حتى راع دنلوب شأنه ، فسأل الناظر عنه فنفض له جملة خبره ، ففظع بدنلوب ان ينقل تلميذ من السنة الثانية الى الرابعة طفرة ، فعجل العقاب لذلك الناظر المسكين ! ولا ادرى اكانت فعلة دنلوب حرصا على النظام ام حرصا على الا تفسح مدارس الحكومة طريق النبوغ لاهل النبوغ ؟ !

ويمضى محمد محمود فى سبيله الى المدارس الثانوية بعد

---

(١) لم يزد عليها .



وانی من قــوم كأن نفوســهم بها انف ان تسكن اللحم والعظما

اذ يحرز الشهادة الابتدائية ، ولايكون شأنه فى الاولى الا كشأنه فى الثانية مجليا ابدا ، حتى اذا ختم علومها واحرز (البكالوريا) متقدما مضى الى انجلترا وانتظم طالبا فى جامعة (اكسفورد) وكان له فى جامعة ابناء الاعيان من الانجليز ما كان له هنا : اكباب على الدرس ، وطاعة فى عزة نفس ، ونبل يمليه الحسب ، وكرامة يزكيها ما يفضى له ابوه من مال ونشب . وكذلك عاش محمد محمود مثلا اعلى للكرامة المصرية فى اعظم جامعات انجلترا بين ابناء اعظم اعيان الانجليز . وتأبى عليه (ارنبة انفه) كذلك الا ان يكون بينهم مجلياً انجلترا كما كان مجليا بين معشره فى مصر حتى احرز اعلى الشهادات . وينقلب الى مصر قريرة به عين شيخ جليل طالما صدق فى خدمة مصر بلاؤه ، وتمحض فى هواها اخلاصه ووفاؤه .

ودخل محمد فى خدمة الحكومة مفتشا ، على ما أظن ، فى وزارة المالية ، فسكرتيرا لمستشار الداخلية ، وتضيق هذه المساحة عن همته كما تضيق بمطامعه فى الحياة ، فيغامر فى ميدان السياسة ويغامر فيها بحزب قوى يجمع (أرباب المصالح الحقيقية) ورؤساء العشائر فى البلاد ، ويقوم « حزب الامة » عوانا بين الحزب الوطنى وحزب القصر فى تلك الايام . وكان الشيخ الجليل محمود باشا سليمان رئيس هذا الحزب ، وكان الاستاذ الاكبر لطفى السيد على ترجمانه (الجريدة) ، وتألفت ادارته من مشيخة من أهل الرأى والعلم والغنى والحسب فى البلاد ، وكان لمحمد محمود فيه ، من وراء الستار ، رأى كبير .

ويضطرب بعض الامر على اللورد كرومر بشيوع الدعوة الوطنية واطراد قوتها واستفحالها يوما بعد يوم ، فيختط له نهجا جديدا ؛ ذلك بأن يستألف رؤساء العشائر و (أصحاب المصالح الحقيقية) ويقيم على المرافق العامة أهل الكفايات من أولادهم اصطناعا لهم من ناحية ، واستصلاحا لاسباب الحكم من ناحية أخرى ، فقد كاد الامر كله يفسد باستخذاء (١) رجال

---

(١) الاستخذاء : شدة الخضوع والانقياد .

الادارة لصغار المفتشين الانجليز واستنامتهم فى جميع الامر لهم ، اذ تشب فى الوقت نفسه حركة وطنية عنيفة تطالب بجلاء الانجليز جملة وتسليم مرافق البلاد لاهل الكفايات من أبناء البلاد ، فأقام محمد محمود مديرا للفيوم وسرعان ماجمع بين احترام الانجليز ورضاء المصريين ، وكان (لارنبة أنفه) فضل عظيم فى مدافعه يد المفتش عن معالجة الامور ، الى قوة عزم ، وحسن ادارة ، وصلابة فى موطن الرأى . ولعلها كانت فى ذلك العصر ، أول تجربة اجدت على الطرفين جميعا .

ثم عين محافظا للقنال ، فمديرا للبحيرة يستقل بالامر حيثما كان (ويأنف) من أن يظهر على رأيه رأى انسان ، ولو كان المفتش ولو كان المستشار ، وتتحرج من هذه الحال صدور وتضطغن على محمد باشا محمود قلوب ، فيتربص به المكروه ، حتى كانت حادثة فى البحيره ارادوا ان يجلجلوا فيها المدير فما استطاعوا الا أن يستقيل أو يقال من المنصب ، وهو لم يزل بعد فى ميعة (١) الصبا ، ضحية للاستقلال بالرأى ، أو ضحية (أرنبة الانف) لاتنزل على المهانة فى أى حال .

ويلبث حتى أعقاب سنة ١٩١٨ اذ تقف رحى الحرب فيتقدم فى أصحابه الغطاريف (٢) للمطالبة بحق مصر فى حريتها واستقلالها ويؤلفون الوفد المصرى ويهيبون بالبلاد فتنهض فى آثارهم ، فتقبض السلطة القوية عليه مع دولة رئيس الوفد واثنين من أعضائه وتنفيهم الى مالطة ، فيمضون اليها بارزى الصدور ، مرفوعى الانوف ، هاتفين ملء أشداقهم : ألا فى سبيل مصر ، فلتحى مصر ! ثم كان من شأن الوفد وعظيم جهاده ماتعرف ، ولا محل لمعاودة القول فيه ، الا أن ألمع الى ماكان لمحمد باشا محمود فيه من كريم المنزلة بشدة عقله ، وصحة رأيه ، وقوة عصبيته فى كبد الصعيد .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ندل على سعيه فى أمريكا اذ شخص عن الوفد لبث الدعوة المصرية هناك ، فتم له كل ماأراد من الفوز والنجاح .

---

(١) أول الشباب .
(٢) الغطاريف : السادة .

وهو من أوائل من استراحوالى فكرة الائتلاف السعيدة ان لم يكن اولهم جميعا ، كما كان من أعظم العاملين على تحقيقها .

* * *

واذا كان محمد باشا محمود مدينا بماضيه الشريف القوى (لارنبة أنفه) فهو كذلك مدين لها بكل مايحقد عليه الناس واسمح لى فى هذا المقام يامعالى الوزير أن أضغط على (أرنبة أنفى) أنا الآخر فارفعها بمقدار ٢ سنتيمتر حتى أستطيع أن أصارحك القول وأخاطبك خطاب الاكفاء للاكفاء : ان خلقا من خلق الله ، وانا مع الاسف منهم ، شديد والموجدة عليك بما يظنون فيك من جنف (١) وكبر وتهاون للناس . وانك لتقتضيهم أن يتوافوا لدعوتك للشؤون العامة بكل ماملكوا من رأى وجاه ومال ، حتى لو دعا الامر الى ابتذال المهج ، والتضحية بالاهل والولد ، اذا انت لاتحتفل لحاضر ، ولاتتفقد غائبا ، ولاتعود مريضا ، ولاتشيع جنازة ميت ، ولاتأبه لاصحابك مهما كرثهم من الامر ونزل بهم من المكروه ، حتى فى الوقت الذى يحتاج فيه الداعية الى مصانعة جميع الناس ! !

وانى لاصارحك بهذا (ورزقى على الله) فان كنت آخذى على هذه المعتبة بقطع (التليفون) عنى فلا احوجنى الله اليه ، أو مجازى بمنعى من السفر فى سكة الحديد فانى (أدق كعب) اذا لم تتهيأ لى الجمال ولا البراذين ، او معاقبى بعدم التخاطب بالبريد ، فليست كتبى مما يسر القلب ، وتفضل من اليوم بتحويلها اليك فلن ترى فيها الا مطالبة (بذمامات) متأخرة ، وتذكيرا بديون منسأة . وعلى كل حال (فالله يغنيها) عن وزارة المواصلات كلها .

والعجب أن محمد باشا محمود ، مع هذا التجنى كله على خلق الله ، رجل شديد الادب ، لطيف المحاضرة ، اذا أذن الله وكشف

---

(١) اعراض وتنح .

لك عن ليلة القدر فأصبته في داره يجلس مجلسا للناس ! ولعل ذلك يفسر ما اقنعني به رجلان فاضلان من ان محمد باشا محمود لاكبر فيه ولا برم (١) بالناس ، انما هو المرض الملح المتدارك يحتازه عن كثير مما يرجو من مصانعة الناس وتفقدهم والتجمل لهم . واني لاقبل هذا التعليل (تحت الحساب). وأسأل الله ان يمن على معالي الوزير بالعافية كلها لينعم هو بها وينعم بها الناس وينعم الوطن .

(١) البرم بالناس : الضجر منهم .

مختار «التمثال»

بيضة كبيرة ينتهى سنها بلحية دقيقة مرسلة على شكل مثلث متساوى الساقين . فاذا حسر الطربوش او القبعة عن راس « البيضة » رأيت غديرا فى صفاء المرآة وهدوئها ، يقوم على حفافيه نبت غزير ، وتلك ايضا راس مختار المثال . وهو كذلك من الرجال الذين تعرفهم بصلعتهم اذا ولوا . وهو ابيض اللون ، له تانك الحدقتان المتحيرتان فى عيون أكثر نوابغ العالم . اما أنفه فبائن الطول والانتفاخ فى غير كبر ولا تيه ، يتدلى على فم لولا غلظ فى شفتيه ما بان ولا انكشف . ثم هو بعد هذه (الزحمة) منتظم الجسم متسق الجوارح ، والحمد لله !

ومختار ضخم الصوت ، فاذا ارتفع صوته تسلخت بعض شعبه ، واذا تحدث ، سواء بالعربية أو الفرنسية ، سمعت لفظ مجاور متحذلق فى « تطجينة » عامل من سكان الخارطة بجوار سيدى ابو السعود !

والعجب انه مع هذا كله رجل « Moderne » مطبوع فى تفكيره ، وذوقه ، واناقته أيضا على آخر طراز . وهو ثائر عنيف الصولة على كل قديم ، متعصب شديد الهوى الى كل جديد . لا يعبأ فى طلب هذا لنفسه ولقومه بعادة ولا بتقليد ، ولا بما هو اشد من العادة والتقليد . وهو اذ نضا عنه الطربوش واتخذ القبعة لم يكن مفتاتا على عيشه الذى يكاد يكون اوربيا خالصا ، ومن العجب ايضا انك تراه مع ذلك يستريح الى الحياة (البلدية)

كلما تهيأت له ، فيأكل بكل كفه، ويعلق اسنانه فلا يتعبها بمضغ ولا قضم ، فاذا اتصل الحديث فى المجلس بألوان المنادرات والمفاكهات سمعت من مختار المطرب والمعجب من كل نادرة طريفة ، (ونكتة) رائعة ، حتى ليخيل لك ان سنه تكنز ستين سنة ، قضى نهارها فى «التربيعة» وليلها فى غشيان الاعراس « الوطنية » وحضور مجالس « الشعراء » على حواشى القهوات « البلدية » واستماع مايتطارح به جماعات المتظرفين من فنون النكات !

وهو صافى النفس ، عظيم الشجاعة ، وافر الذكاء . لا يعنيه شىء فى الدنيا قدر عنايته بفنه الجليل .

وفى الحق ان مختارا مجموعة «Assortimant» تضم الوانا من الغرائب والمتناقضات . ولعل ذلك هو الذى هيأ له كل هذا النبوغ العظيم . وان مثالا -يتروى فنه فى بلاد الغرب عن اكبر رجاله ، ويظل السنين الطوال فى ملابستهم ومحاكاتهم والتفطن الى مداخل صنعتهم حتى يحذقه ويبرع فيه ثم ينقلب الى بلاده فاذا هو بصير بكل عاداتهم وتقاليدهم واخلاقهم ومحاضراتهم وما جل ودق من شئونهم على تفرق طوائفهم واختلاف بيئاتهم - لهو جدير بأن يكون فى فنه الحسان كل الحسان .

* * *

وقد نجم مختار من اسرة كريمة ، فلما يفع اخرجته على العادة ، للتعليم فى المدارس الابتدائية ، فمضى فى درسه غير وان ولا متخلف ، على انه لم يكد يطوى فى الطلب بضع سنين حتى بدا ميله واضحا للرسم والتصوير ، فلا يرى مكبا على درس اكبابه عليه فى « حصة » الرسم ، ولا يكاد يرى هونقشا باديا او صورة معلقة الا وقف يتصفح ويتأمل ويشيع كل حسه فى تقاسيمها ومتخالف خطوطها وتعاريجها ، ثم استل ريشته وادوات رسمه الصغيرة وراح يحكيها بكل ما تهيأ للموهبة الناشئة فى ذلك الجرم الصغير ! وظل كذلك عدة سنين لا يعدو منه الاجتهاد فى طلب



خلدت ((نهضة مصر)) فخلدني تمثالهـا

العلم على الاجتهاد فى تربية تلك الملكة ما استطاع اليها السبيل .

وكانت مدرسة الفنون الجميلة التى انشأها سمو الامير البار يوسف كمال ، فنزعت اليها نفس مختار ، ولعله لقى من اهله فى دخولها عنتا ، وكيف لا تعنت الاسر الطيبة ، فى مثل تلك الايام ، اذا رات ولدها يميل عن طريق الحقوق او الطب او الهندسة الى طريق لا تنتهى بسالكها الا ان يكون (مصوراتى) او حفارا او نقاشا ؟! . .

وعلى كل حال فقد تم لمحمود مختار ما اراد من دخول مدرسة الفنون الجميلة ، او بعبارة احكم ، لقد تم ما اراد الله لمصر من ان نرى نابغة من ابنائها يخلد نهضتها على تطاول الاعصار !

وفى هذه المدرسة جعلت موهبة مختار تتجلى ، وجعل اساتيذه يخصونه بعنايتهم لما انسوا فيه من مخايل تدل على مستقبل عظيم ، وبقى هو ، طول مدة الطلب ، مجليا لا يلحق : اكبابا على الدرس ، واجتهادا فى التمرين ، وتوافيا لكل دقيق من ملاحظات الاساتيذ ، حتى اذا برع بقدر ما يمكن ان يبرع طالب فى مدرسة الفنون الجميلة فى مصر راى ان ظمأه للفن لا ينقعه الا ان يغترف من اصفى ينابيعه ، فشخص من فوره الى باريس وانتظم فى اعظم معاهدها ، أشخصه اليها كذلك سمو الامير يوسف كمال ، وظل يتعلم على اكبر اساتيذها عشر سنين متواليات ما احسبه انحدر فى خلالها الى مصر مرة واحدة ، واجتمعت شهادة اقطاب الفن هناك على ان هذا الفتى «المصرى» ولا فخر ينبغى ان يكتب فى جريدة كبار المثالين . ويعهد اليه فى «معهد جربفان» بمنصب كبير ، وما كان هذا ليسوغ لاجنبى قط لولا نبوغ مختار الذى اوفى على كل تقدير .

ويشاء الله لمصر ان تنبعث ، ويشاء لها نهضة قوية يلتفت لها العالم كله ، فتثور موهبة مختار هناك وتأبى ثورتها ان تهدأ الا اذا كشفت سر ابى الهول الذى ظل محقونا فى اطواء صدره المقبوض آلاف السنين ، واذا أبو الهول ناكس الرأس من وجد وأسى على

مصر الاسيرة العانية واذاأبو الهول يرفع راسه وينبعث ، لان مصر نهضت تفك اغلالها لتسعى فى ارض الله سعى الاحرار .

وكذلك خرج تمثال « نهضة مصر » فتاة فلاحة تبعث ابا الهول فيتحفز للوثاب ، ويتهيأ للغلاب .

وما كاد مختار يعرض تمثاله فى « صالون باريس » حتى هرع اليه كبار رجال الفن واقبلوا على « المثال » المصرى بأتم الهناء والاعجاب ، وتطايرت الاخبار الى مصر فسرعان ما اجتمع من شبابها كل ندب وطنى نجيد ، وسرعان ما ندوا بالاموال واستندوا ابناء الوطن ليسجلوا « نهضة مصر » ويرفعوا تمثال مختار ويرفعوا معه اسم مواطنهم النابغة مختار ، فجمعوا آلافا من الدنانير اذا لم تغن فى العمل الجسيم فقد مهدت السبيل لان تتولاه حكومة الشعب ، ومن حق حكومة الشعب أن تتولاه .

وقد مضى العمل فى تمثال « نهضة مصر » جدًا بمعونة الحكومة وعطف الامة ، وهو الان يستشرف بفضل الله للتمام .

واذا كان مختار قد لقى بادىء الرأى تجنيا وعنتا من الدهماء وأشباه الدهماء ، فتلكم سنة الكون فى هؤلاء ، وهل قام فى الدنيا مصلح الا قاوموه واعترضوا سبيله ؟ وهل نبغ فيهم نابغ الا ملكهم الحسد من كل جانب فمضوا يتنقصونه بكل ما أحرزوا من جهل وتضليل ؟ .

ولقد تظاهر الجهل والحسد جميعا على تمثال مختار ، أما الجهل فمن أولئك « العلماء الاقطاب » الذين تراهم يقضون بياض نهارهم وسواد ليلهم على متون القهوات العامة ، اكفاء لان يفهموا كل نظرية ، ويبتوافى كل قضية ، بحيث لا تخفى عليهم خافية من دقائق الفلك والطب والهندسة والسياسة وعلوم القانون وفن تعبئة الجيوش (التكتيك) وكل ما تنقطع دونه جهود فحول العلماء فى جميع العالم ! ! . وأما الحسد فمن أولئك الذين يصابون بضعف الهمة وقوة الشهوة ، وهم يأبون الا أن يكونوا عظاما اذا لم تعدهم مداركهم ولا مساعيهم فى الحياة لعظيم .

تظاهر هؤلاء وأولئك على مختار وعلى تمثال مختار فانطلقوا بكل ما فيهم من « ذكاء » و «اخلاص» يتنقصونه وينحيفون من قدره ومن الجهه « الفنية » ما شاء الله أيها « الجدعان » ! !

وسار هذا الروح الخبيث في البلد تعضده دسائس ممن أدلى اليهم الزمن « الخائر » بمناصب لها شأن فى بعض الحكم ، ولها جميع الشأن فى أمر التمثال ،فما زالوا يدافعـونه ويعترضونه بألوان العواثير ، ومختار ساكن سكون الواثق بأن عبقريته وحدها كفء لما أعد الحسـدة وتفيهق الجهال ! !

وشـاء الله أن تقدر هـذه العبقرية قـدرها ، وأن يقـرر مجلس النـواب ، بين التهليـل والتصفيق ، فرض المال الضخم لاتمام تمثـال « نهضـة مصر »وكذلك تم الانتصار لمختار ، وان شئت قلت تم الانتصار للعبقرية الفخمة على حسد الحسدة وعلى جهل الجهال .

وتظفر مصر آخيرا بمثال نابغة من بنيهـا ، وأولئـك الـذين لا يطيقون أن يسمعوا مقالة الخير فى أحد من مواطنيهم ، قد أمست أنوفهم فى الرغام .

وفى الوقت الذى كان ينكـر فيه عبقريو « القهـوات » عـلى مختار خطر فنه وخطر أثره .كانت تترادف عليه الدعوات من أكبر معـاهد الفن فى أوربا لتستثمر موهبته فى عملها الجليل اذ يأبى مختـار أن ينصرف عن تمثال « نهضة مصر » فى سبيل المال وما هو أعز من المال .

وحسبه مـن الجزاء على هـذا التمثال ، أنه مخلد نهضة مصر على تطاول الاعصار والاجيـال .فهناء ثم هناء « يا سى مخطار » !

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيـــدة

صدر منها حتى الآن :

١ ـ **آبار فى الصحراء** ـ مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامى

٢ ـ **الضاحك الباكى** ـ احاديث عن الثورة المصرية وذكريات عن الصبا والشباب للاستاذ فكرى اباظه بك

٣ ـ **الف ليلة الجديدة** ـ اخراج جديد لهـــذا القصص الفريد فى الادب العربى للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

٤ ـ **نســاء من خزف** ـ مجموعـة مـن القصص المصرى العصرى الشائق للاستـاذ سعـد مكاوى

٥ ـ **صـندوق الدنيـا** ـ مجموعة صور فكهة من الحياة للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

٦ ـ **فرعون الصغير** ـ مجموعة قصص مصرية عصرية طلية للاستاذ محمود تيمور بك

٧ ـ **الشرق والغرب** ـ مجموعة قصص تصور الحياة المصرية مع مقارنتها بالحياة فى بلاد الغـرب للـدكتور محمد عوض محمد بك

٨ - **قضايا الحب** - مجموعة من اغرب وامتع القضايا التى
عرضت على المحاكم المصرية فى مختلف
بلاد القطر للاستاذ فائق الجوهرى
المحامى

٩ - **جيشنا فى فلسطين** - تسجيل تاريخى لمعارك الجيش
المصرى فى حملته لانقاذ فلسطين
من الارهاب الصهيونى

١٠ - **الف ليلة الجديدة** - المجموعة الثانية من هذه
القصص الفريدة للاستاذ عبد
الرحمن الخميسى

١١ - **فى المرآة** - مختار المرايا التى نشرت فى السياسة
الاسبوعية لفقيد الادب الشيخ عبد العزيز
البشرى ويظهر فى اول ديسمبر القادم

١٢ - **الغاديات الرائحات** - مجموعة قصص مصرية متنوعة
من صميم الحياة تصور النضال
العنيف من بين الحب والعواطف
الاخرى للاستاذ محمود طاهر حقى

ثمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش

فهرس

الاهداء	٤
تقديم	٥
فى حضرة الرئيس	٨
زيور باشا	١٣
عدلى يكن باشا	١٩
سعد زغلول باشا	٢٥
عبد الخالق ثروت باشا	٣٠
ابراهيم الهلباوى بك	٣٥
الدكتور محجوب ثابت	٤٠
الدكتور محجوب ثابت أيضا	٤٨
الدكتور على ابراهيم بك	٥٠
احمد لطفى السيد بك	٥٦
اسماعيل سرى باشا	٦٢
عبد الحميد سعيد بك	٦٧
فكرى أباظه	٧١
طلعت حرب بك	٧٦
حافظ رمضان بك	٨٢
حافظ ابراهيم بك	٨٦
هدى هانم شعراوى	٩٤
اسماعيل صدقى باشا	١٠٢
من صدقى باشا الى محرر المرأة	١٠٧
على الشمسى باشا	١٠٩
عزيز عزت باشا	١١٦
شوقى	١٢٠
محمد محمود باشا	١٢٦
مختار « التمثال »	١٣٢
نابلسى فاروت ونشرات آخرى	١٣٩




متشكر يا شيخ محمد...
أنا سمعت نصيحتك
واستعملت أبو نخلة
وكان البرسيم عظيم...
أبو نخلة